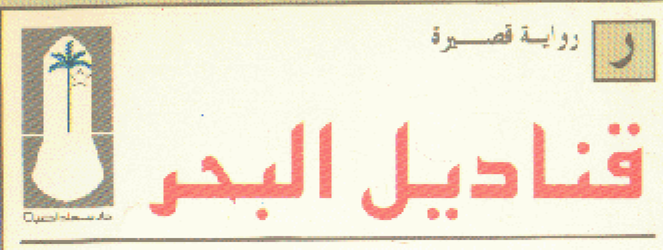
منتديات مكتبة العرب

http://library4arab.com/vb



إبراهيم عبد المجيد



منتديات مكتبة العرب

http://library4arab.com/vb

قناديل البحر

منتديات مكتبة العرب

http://library4arab.com/vb

الإهـداء ...

إلى « إياد » جامع الأصداف الصغير ..

منتديات مكتبة العرب

http://library4arab.com/vb

« أنت فى هذا الطريق لست إلهاً ولا رسولاً ،
فاغلل يدك عن هذا الرد والقبول ، وتطهر من
التعصب ، وكن عبداً مطيعاً فى هذا الطريق .
وما دمت حفنة من تراب ، فتحدث عن التراب ،
واعتبر الجميع أطهاراً ، ولتطهر قولك .... »

فريد الدين العطار

« منطق الطير »

« قالت فماذا تروم ، قلت لها :
ساعة سعد بالوصل تسعدنى .. »

صفى الدين الحلى

تقـــديم :

هل من حقى أن ...

قليلاً ما نجد كاتباً يحدثنا عما يقع خلف الكتابة ، أو تحتها . والكاتب غالباً على حق فنياً ، فسبب كتابة القصة ، أو القصيدة ، يفسدها بالتأكيد إذا تسلل إليها . لكن تظل معرفة ذلك عملاً هاماً ، وكتابة فنية أيضاً مطلوبة ومفيدة ، ليس للدرس ، ولا لتنوير السادة الباحثين والنقاد فقط ، ولكن أيضاً لنفض الجراب كله ، لاستخلاص الراحة حتى الثمالة . الفن إشباع حقاً ، وتفريغ أيضاً لشحنات من الشجن السحرى . كيف حقاً ندلق كل هذا الشجن على الورق ونحتفظ بالسبب ؟ . بالتأكيد تأخذ الكتابة ، فى تضاعيفها وظلالها ، مثيرها معها ، لكن يظل منه مسحة ، أو قرار ، أو لحظة مفعمة بالزمن ! .

لقد كتبت ، مرة ، أن سبب كتابته لقصة قصيرة بعنوان « الكلمات المتقاطعة » هو اختطاف الطائرات الأمريكية لطائرة الركاب المصرية التى كانت تحمل فدائيين فلسطينيين فوق البحر المتوسط . وقصة الكلمات المتقاطعة خالية من كل ما يشير إلى ذلك ، من قريب أو بعيد – يمكنك طبعاً الاطلاع على هذه القصة فى مجموعتى « إغلاق النوافذ » – . وقلت أيضاً إن سبب كتابة قصة « الجدار » – المنشورة فى إبداع منذ سنوات وسوف تضمها مجموعة قصصية قريباً – هو أنى رأيت صورة أحد الرؤساء الذين يتحدثون كثيراً عن الديموقراطية ويسجنون البلاد . وليس فى قصة الجدار أى إشارة لذلك . إنها قصة رجل تحاصره الجدران فى كل شارع يمشى فيه . وأستطيع طبعاً أن أحدثك عن كثير مما هو وراء كتابة أعمال لى ولم يظهر فيها ، وعما فكرت فيه أو رأيته قبل الشروع فى عمل فنى كالقصة أو الرواية ، أو ما كان موجوداً بالقوة – باصطلاح

أرسطو – ثم صار موجوداً بالفعل ، جديداً ومغايراً . السياسي كما ترى يتحول إلى نفسي ، روحي ، وجودي ، ويمسك بالمطلق عبر صور مادية مباغتة ، أندهش حين أقرأها ، أتساءل في أي مكان في الدماغ ، أو القلب ، كان موجوداً هذا كله .. الإبداع عملية معقدة حقاً وجميلة .

* * *

قررت الآن أن أتحرر . أوسع الحلقة الحديدية حول عنقي ولو قليلاً . لا تسألني عن الوقت الذي ترددت فيه قبل أن أقرر ذلك فهو طويل . كيف حقاً أناوئ التراث الموروث والمورّث لنا . الكاتب آخر من يستطيع أن يتحدث عن تجربته ، أو آخر من يفهمها . طيب . ليكن . لكنه يفهم ما حولها وما قبلها وما بعدها أيضاً فهل يمتنع عن الخوض فيه ؟ .. لا أظن . الكاتب فقط ، من الإرهاب التراثي ، يتصور أنه صار ممنوعاً من الكلام . لاحظ أن المبدعين المصريين منذ الستينات قليلو الإنتاج من ناحية الكم ، فبعد ربع قرن أو أكثر تجد المشاهير منهم لم يتجاوزوا خمسة كتب صغيرة الحجم . هل تعرف السبب ؟ . طبعاً سيدخل الحديث عن الظروف الاجتماعية والسياسية ، ولن يتحدث أحد بالطبع عن الإفلاس أبدا ، كما لن يتحدث أحد عن الإرهاب الضمني الذي سببته المقولة الرائجة في الستينيات ، وحتى الآن ، وهي أن الكاتب يحتاج إلى سنوات طويلة لكتابة رواية جيدة ، وإلى أكثر من عام لكتابة قصة قصيرة . أخذت هذه المقولة شكل المطلق . وبعض الكتّاب ظل سنوات بلا كتابة ثم اعتبر ما كتبه بعد ذلك إنتاج كل السنوات السابقة . ثم الخضوع لهذا المطلق الذي اخترعه الكتّاب أنفسهم ، وتأخرت كتابات كثيرة ، وضاعت حقيقة أن العملية الإبداعية نسبية إلى أقصى درجة بقدر ما هي شخصية إلى أقصى درجة . وهناك أعمال قد تكتب في سنوات وأعمال قد تتفوق عليها أو تضارعها قد كتبت في شهور ، لأن العبرة

بالامتلاء والموهبة . امتلاء الكاتب بالتجربة وعمق موهبته . رغم أن الدقة مطلوبة والتأني أيضاً .

منذ الستينيات راجت فكرة أن القارئ لم يعد قادراً على قراءة الروايات كبيرة الحجم . وأن الرواية القصيرة ، أو القصة الطويلة ، أو النوفيللا – تخلصاً من هلاك المصطلحات – هي أنسب الأشكال . روّج لهذه المسألة في البداية معلمنا نجيب محفوظ بعد أن كتب « اللص والكلاب » ودخل مرحلة رواياته الفلسفية – هل لم تكن هناك فلسفة في رواياته السابقة ؟ – . صدق النقاد نجيب محفوظ – كالعادة – وصدقه أيضاً كثير من الكتّاب ، وساعدهم درس يحيى حقي في انتقاء اللغة ، ولم يحاول إلا القليل كتابة روايات كبيرة الحجم . والحقيقة ليست كذلك ولا عكس ذلك . الحقيقة أيضاً نسبية . يمكن جداً لعمل كبير أن يقرأه القارئ أسرع من عمل صغير ، إذا كان الأول ممتعاً ، والثاني سمجاً ثقيلاً ..

نحن إذن نقول الرأي ثم نحوله إلى قانون نسجن أنفسنا داخله ويتحول إلى تراث إرهابي . هل طال كلامي ؟ هل صرت مفهوماً ؟ لا بد أنك مستعد الآن لبوحي لك بما هو قبل وبعد كتابة روايتي التي بين يديك .

* * *

« قناديل البحر » رواية قصيرة كتبتها في عام صعب ، هو عام حرب الخليج . قفزت إلى روحي الرغبة في كتابتها خلال قضاء أسبوع على شاطئ العريش الجميل في شهر أغسطس من العام المشار إليه . وتمكنت مني الرغبة بعد عودتي وقراءتي لروايتين جميلتين لكاتبين عربيين . الأولى هي « المجوس » للكاتب الليبي إبراهيم الكوني والثانية هي « الريش » للشاعر والروائي الكردي – الذي يكتب بالعربية – سليم بركات .

لا علاقة بين العملين المشار إليهما وهذه الرواية . لكن هذين العملين ، ورحلة العريش ، كانت بلسماً حقيقياً بعد حرب الخليج التى أصابتنى بكره شديد لكل مكان ممكن وكل زمان محتمل . لقد عشت ورأيت تبخر الأحلام التى كبرنا عليها . حلم الاشتراكية وحلم العروبة وكل ما يتنوع عليهما . صرت أحتاج وقتاً لأتواءم مع الوقت . هناك طبعاً من يستطيع بسرعة تغيير جلده وفتح صدره لكل جديد سواء كان هذا الجديد نبتاً للهزيمة أو نبتاً للانتصار ، لكننى لست من هذا النوع ، ولا أظن أن مبدعاً حقيقياً يستطيع بسرعة أن يتخلص من قناعاته ، لأن قناعات الفنان غالباً ما تمتزج بالقلب . بل هى دائماً ما تفعل ذلك . كنت أحتاج وقتاً لأتواءم مع الوقت . « المجوس » و « الريش » ورحلة العريش أعادت لى الشعور بأن النجاة فى الكتابة . ذكرتنى بذلك ، وهو أمر لم يغب عنى من قبل ، وطالما قلت فى أحاديثى إننى منذ السبعينيات وجدت أن الكتابة وحدها هى التى تساعدنى على البقاء حياً . أن تكتب يعنى أنك موجود . أو إن شئت فأنا أكتب إذن أنا موجود ، وبالفرنسية إذا أحببت أيضاً : « j'ecris dore je suis » ...

لكن اسمح لى أن أضيف إلى ذلك أمراً قد يبدو تافهاً ، لكنه عميق إلى الدرجة التى أثارتنى فيها غاية الإثارة .. لقد وجدت نفسى أسمع لحناً جميلاً إنساب بعده صوت عبد الوهاب يغنى بإحساس العاشق الحقيقى قصيدة « قالت » للشاعر العباسى الشهير صفى الدين الحلى ، المنسوب إلى مدينة الحلة ، التى هى بابل ، ومدينة عشقار وتموز الراعى ، والتى كنت أزورها دائماً كلما زرت العراق مع الوفود العربية وكان دائماً معنا ضمن الوفود أدباء من الكويت كبار ومشاهير وأدباء من كل مكان ، وأدركت وأنا أستمع لعبد الوهاب أننا قد ابتعدنا كثيراً عن كل شيء ، وأنه لا سبيل لرؤية الكتّاب والأدباء الذين كنا نراهم فى بغداد والحلة والبصرة والموصل من كل البلاد . للمدن العراقية رائحة لا علاقة لها بالنظام الحاكم . رائحة

الحضارة الآشورية والبابلية والعربية . وتلك الرائحة هى التى كانت مقصودة بالضرب ولم يكن مقصوداً ضرب النظام الحاكم .. لقد أذيعت أسرار العملية كلها والتفاصيل الجهنمية لما جرى منذ الأسابيع السابقة على الغزو العراقى حتى تحرير الكويت . لقد كتبت مرة فى مجلة الهلال أنه يخيل لى أن الهدف مما حدث أن لا يجد الأدباء العرب مكاناً يجتمعون فيه على اختلاف اتجاهاتهم ، أو مكاناً يضحكون فيه بعض ليال يستعدوا بعدها لعام من الآلام !!

لقد استمعت لأغنية «قالت» البديعة وطريقة عبدالوهاب فى إيصال الاحساس الدرامى فى السؤال والجواب ، ودخلت غرفتى وبكيت بكاءً مراً .

عدت إذن للكتابة فى محاولة للوجود من جديد . وبالمناسبة الوجود الذى أعنيه بسيط للغاية . هو أن يمر بى اليوم هادئاً .. أنام وأصحو لأبدأ يوماً آخر هادئاً . هل ترى إذن أن يمكن تحقيق هذا الوجود بسهولة ؟ لا أظن . أن يمر اليوم بهدوء هدف كبير فى عصرنا .

انتهيت من هذه الرواية القصيرة فى شهر مايو ١٩٩٢ وكنت بدأتها فى نهاية أغسطس ١٩٩١ . وبالمناسبة أنا أميل لاصطلاح رواية قصيرة أكثر من اصطلاح قصة طويلة علامة على هذا الفن البديع الذى يتوسط القصة والرواية . فالرواية القصيرة تعبير يوحى بالتكثيف والدقة بينما القصة الطويلة توحى بالإطناب والإطالة .. قلت إننى انتهيت من الرواية فى شهر مايو ١٩٩٢ . ثم سلمتها إلى الشاعر أحمد الشهاوى سكرتير تحرير مجلة نصف الدنيا بعد ذلك بشهرين ، أى فى يوليو أو أغسطس . وقال لى إنها ستنشر بعد شهرين أو ثلاثة من استلامها حيث هناك بعض القصص القصيرة الموجودة بالمجلات لعدد من الكتّاب من الضرورى الانتهاء منها قبل الشروع فى نشر رواية مسلسلة . وجدت الأمر معقولاً وانتظرت حتى وقع الزلزال الرهيب فى مصر يوم الاثنين ١٢ أكتوبر ثم بدأ نشر الرواية يوم الأحد التالى ١٨ أكتوبر عام ١٩٩٢ .

كان علىّ فى ذلك اليوم أن أذهب إلى المجلة لمراجعة بروفات الحلقة الثانية ، ووجدت أمامى ما لم يخطر لى ببال .

وجدت مونولوجاً قصيراً يتردد فى روح البطل ، ناجى ، وهو يتذكر زيارته فى العام الماضى لبلدة ومصيف مرسى مطروح . ووجدت فى هذا المونولوج إحساساً مبكراً بالزلزال الذى وقع يوم الاثنين ، وفيه بالنص كلمات جيولوجية « ستحدث حركات تكوينية ... إلخ إلخ » . من هذا المونولوج يرى البطل ، ناجى ، ذهابه للمصيف فى مرسى مطروح كأنما هو ذهاب الفيلة إلى محطتها الأخيرة ، موتها ، وفى المونولوج صورة درامية / تراجيدية قاسية لم أقصدها بالطبع حين كتبت ، وهذا هو ما أرهق روحى حين قرأته . لم أكن منتبهاً إليه ، وتساءلت كيف اندلق حقاً كل هذا الحزن . ارتبكت بشدة ، وكنت مرتبكاً فى الأصل بسبب ما وقع للبلاد من أثر الزلزال ، ومن حالة الترقب الفزع التى سادت الناس والبيوت ، ومنهم بيتى طبعاً ، وبسبب التوابع التى استمرت لأيام . كان الرعب من انهيار المنزل أو تصدعه رابضاً فى دماغ الناس جميعاً . وأنا واحد من الناس . هل من الممكن حقاً الخروج إلى الشارع - إذا قدر لنا النجاة - والبحث من جديد عن شقة بعد أن كنت نسيت ذلك من زمان ! . أضف إلى ذلك نكبة صديقى الناقد عبد الرحمن أبو عوف الذى تصدع بيته وكان يحدثنى كل يوم متوتراً متألماً وكنت أنا أيضاً أحدثه حتى أهون عليه . ومن ثم لم أجد أى فرصة للابتعاد عن مناخ الزلزال وتوابعه . ثم قرأت الحلقة الثانية من الرواية لأجد فيها هذا الاستبصار بالزلزال فركبنى الحزن ، وخفت - حقاً - أن تمتد الرؤيا فتحدث براكين كما جاء فى المونولوج المباغت المخيف لناجى بطل قصتنا .

لقد تحدثت فى ذلك مع أكثر من شخص ، وأحسست بعدم قدرتى على الكتابة . شملنى خوف من الكتابة ، وتذكرت مواقف أخرى مشابهة فى أعمال لى سابقة نادراً ما تحدثت عنها . منها موقف الصبى « على » فى

رواية المسافات حينما مشى فى الخلاء يقذف بالأحجار التى يتمنى أن لا تسقط على الأرض قبل أن يراها الناس تمر بالبلاد لعشرات السنين ويتساءلون عنها فيقول العارفون إنها « حجر على ألقاه منذ عشرين سنة ولم ينزل بعد » وهكذا تتوالى صورة الحجر الطائر / الخالد عبر السنين . المسافات رواية انتهت كتابتها عام ١٩٨٠ ونشرت عام ١٩٨٢ لأول مرة .

كذلك هناك حوار واضح محدد فى رواية بيت الياسمين بين شخصيتين يسعى أحدهما دائماً للسفر إلى الكويت ويمحور حياته حول هذا الهدف فيقول له الآخر « مصير البترول يخلص أو تقوم حرب وتولع الدنيا » .

هكذا بالضبط فى رواية منشورة عام ١٩٨٧ . وفى روايتى الأخيرة « البلدة الأخرى » التى انتهيت من كتابتها عام ١٩٨٨ - والعبرة دائماً بتاريخ الكتابة - والتى ظلت عند دار الريس للنشر منذ عام ١٩٨٩ حتى عام ١٩٩١ حيث صدرت - فى هذه الرواية أكثر من موقف حدث بعد ذلك . الرواية تبدأ بنزول المطار ببلدة تبوك السعودية فيرى البطل طائرة حربية أمريكية ، وتنتهى بالعودة من نفس المطار ليرى البطل طائرتين بدلاً من واحدة . وفى الرواية حديث للبطل مع أحد اليمنيين حول التسهيلات الممنوحة لليمنيين فى المملكة فيقول اليمنى « ومن يضمن بقاء الحال ؟ » ولقد حدث بعد حرب الخليج أن تغير الموقف من اليمنيين تماماً . وفى الرواية أيضاً فخ منصوب للفلسطينى لم يستطع أبداً الفكاك منه رغم كل محاولاته حتى تم طرده من البلاد . وهكذا . لقد أدركت ذلك كله بعد أن قرأت تقرير الناقد المعروف الدكتور صبرى حافظ لدار النشر حول الرواية ، وقال فيه إن بها استبصاراً بحرب الخليج وما جرى فيها من أحداث .

هذا كله لم أنتبه إليه أثناء الكتابة ، بل بعدها ، حين يكتشفه ناقد أو صحفى جاء يجرى معى حواراً . ولقد قلت فى أكثر من حوار حول هذه الظاهرة فى أعمالى إنها من نوع الاحساس العميق بالكارثة ، فجيلى فى اللحظة التى بدأ فيها يدخل فى نسيج الحياة الاجتماعية واجهته هزيمة ١٩٦٧ . ومنذ ذلك اليوم وكل شيء يتراجع حول هذا الجيل . ولقد تضايقت مرة من هذا الاحساس العميق بالكارثة الذى يلون الكتابة نفسها ، لكن الدكتور شكرى عياد فى إحدى دراساته – انظر مجلة الهلال عدد يوليو ١٩٩٠ – قال : إن شيئاً مهماً فى شخصيات إبراهيم عبد المجيد هى أنها لا تستسلم بسهولة ، وأن بها عناداً .. لقد أضاء لى معنى الأمل الذى تمنيت أن يكون فى أعمالى ، وكان موجوداً ويدركه الناقد الفنان الحصيف .. نفس الأمر أدركه الناقد الكبير الدكتور على الراعى فى دراسته الممتعة عن رواية الصياد واليمام – انظر كتابه الرائع الكبير عن الرواية العربية – . والحقيقة أن عدداً كبيراً من النقاد أدرك هذا الأمل رغم أن ناقداً كبيراً مثل الدكتور لويس عوض كان يتهم جيلنا بالانهزامية . لكن المرحوم لويس عوض لم يكن يقرأنا ...

فى ندوة حول رواية البلدة الأخرى فى مؤتمر الرواية الذى أقيم بجامعة القاهرة فى بداية عام ١٩٩٢ تحدث الدكتور جابر عصفور وقال : إننا عندما نصل إلى نهاية رواية البلدة الأخرى ونجد طائرتين أمريكيتين بدلاً من طائرة واحدة نجد أنفسنا مدفوعين لإعادة قراءة الرواية مرة أخرى لفهمها فى إطار هذا المعنى الجديد .. لكنى أعترف لك أيها القارئ أن كل هذه الاستبصارات لم تكن من تخطيطى ، إنما هى كما قلت لك نبت الإحساس الرابض فى روحى باستمرار الكارثة . لكننا أبداً لن ندخل فى الممات . هذا أيضاً موجود فى روحى وإن كانت طبقته عميقة تظهر على استحياء . لقد قلت لأحد الصحفيين حول الصبى « على » الذى كان يلقى بأحجار يود لو لم تنزل إننى لم أكن أتنبأ بشيء ، ولم أكن أتنبأ بثورة

الحجارة بالتحديد ، لكن « على » صبى يفعل ما يفعله الصبية فى الخلاء ، وإن كان يبدو متألماً من استسلام الكبار من حوله لظروفه الصعبة ويود معرفة سبب ما يقع لهم من بلاء . ونفس الشيء قلته الآن لك عن استبصارات ثانية بنت الاحساس العميق بالكارثة التى لونت نظرة جيلى منذ عام ١٩٦٧ ، ولقد قلت ذلك فى حديث قريب للصحفى الشاب النابه يسرى حسان فى مجلة « حريتى » عندما أدرك ما جاء فى الحلقة الثانية من هذه الرواية حيث نشرت بمجلة « نصف الدنيا » من استبصار بالزلزال ..

والآن ما علاقة هذا كله الذى قلته لك بالرواية . لا أعرف . لكنه قد يكون مفيداً أن تعرف شيئاً عن الظروف التى أحاطت بهذه الرواية قبل كتابتها وبعدها . أما أثناءها فلم يكن هناك إدراك عميق عندى بما أكتب ، هكذا جرت العادة ، لكنى كنت أشعر دائماً بأشياء كثيرة كانت فى يدى طارت مثل عصافير ملونة واختفت فى الفضاء . وبين يديك الرواية قد تعرف منها الطيور التى طارت ولم تعد والطيور التى بقيت فى الأرض .

إبراهيم عبد المجيد

الجيزة : صباح ١٩٩٢/١٢/٣١

را – بح

خلاء مزروع بأشجار اللوز ، وأشجار الزيتون القديمة ، وأشجار عنب قصيرة لم تشتد بعد . وجه الأرض أخضر ، وتبدو الخطوط الرملية الصفراء بعيداً هناك مع مد البصر ، بعدها تتفرق نباتات صحراوية خضراء وجافة ، حسك وصبار وحنظل وشيح ومرمرية وحشائش شيطانية . فوق الجميع فضاء واسع تبعثرت فيه سحب بيضاء شفيفة ترتفع فوقها السماء بغير عُمد ، وبزرقة نادرة ، والهواء قادم من كل اتجاه منعشاً رطباً رغم أن الشمس تصعد مسرعة لتتسيد الدنيا ..

ترجلوا منذ قليل تاركين الميكروباص ، وتفرقوا يميناً ويساراً . لا يزيدون عن الثلاثين ، ونصفهم على الأقل من الأطفال . أمامهم مباشرة ، وبعد أن ترجلوا بأمتار قليلة ، تمتد الشباك السلكية السميكة إلى الناحيتين . في الوسط حيث توقف السائق بالميكروباص ، بوابة عريضة تكفي لمرور حافلة كبيرة ، مفتوحة الآن إلى نهايتيها ، ضلفتاها المفتوحتان هيكلان من المواسير القديمة ، المتصلة فيما بينها بالشباك السلكية .. خلف البوابة ، إلى اليمين واليسار مع امتداد السلك ، طريق مسفلت لا يزيد عرضه عن خمسة أمتار . طريق جديد لكن لا يبدو أن أحداً يستخدمه . خلف الطريق ، وفي موازاة معه ، ومع السلك الشبكي الأول ، يمتد سلك آخر ، شبكي أيضاً ، لكنه أغلظ ، وأعلى ، وأكثر جدة ،

وسمكاً ، وانشداداً . ينحني هذا السلك الأخير إلى الشمال حيث تتوسطه بوابة عريضة ، مفتوحة ، أمامها باحة واسعة ، مسفلتة بعناية ، تقف فيها خمسة أتوبيسات سياحية مصرية ضخمة فارغة تنتظر ركاباً من الأرض المحتلة ، تقلهم عادة حتى البوابة ، أتوبيسات إسرائيلية .. السلك الأخير هذا هو حدود الدولة العبرية إذن ، خلفه أكثر من كشك خشبي السقف جيد البناء ، ويتوسط الجميع برج الحراسة العالي الذي لا يظهر منه غير خوذة الجندي البيضاء تتحرك دائرياً .

خلف المشهد كله عدد من الكثبان الطبيعية العالية ، المزروعة السفح حتى وسطها تقريباً ، وفوقها اتساع الفضاء وزرقته . إنه البحر الذي لا يراه أحد الآن هو الواقع وراء الكثبان ، وهم يقفون في منطقة السهول الساحلية الشهيرة التي تربط بين فلسطين وافريقيا ، والتي كان فوقها قديماً ، حتى عام ١٩٦٧ بالضبط ، خط السكة الحديد الذي كان يمر بالبوظة ورمانة والمساعيد والعريش والخروبة والشيخ زويد ورفح قبل أن يدخل إلى غزة وخان يونس . لم يبق على السهول الآن من طرق إلا الطريق البرّي الجديد ، لأن الطريق القديم أكلته الحروب والسيول .

على هذه السهول مشى الأنبياء الذين دخلوا مصر ، وعليها خرجت الجيوش من مصر لتمشي إلى الشام ، وتأتي منه أيضاً إلى مصر غازية . إنه طريق « حورس » اللقب الذي كان يحبه كل فرعون . عليه طارد أحمس الهكسوس إلى أن حاصرهم في تل الفرعة جنوب فلسطين ثلاث سنوات كاملة حتى استسلموا . ولم تكن رفح « را – بح » الفرعونية ، نقطة حدود قط . كانت آخر البلاد المصرية ، لكن الجنود المصريين كانوا لا يتوقفون إلا بعد أن يتجاوزوها بكثير . إحدى برديات سيتي الأول ، أحد ملوك الأسرة التاسعة عشر ، في العام ١٣١٥ ق.م ، تذكر تمرد البدو على سلطته ، هناك في سوريا :

« لقد وصل إلى علم جلالته أن الشاسو – البدو – الخاسئين قد دبروا العصيان ، وتجمع رؤساء قبائل « الرتنو » وأعلنوا عصيانهم هم والآسيويون في خارو – سوريا – وأخذوا ينهبون الناس ويتشاجرون ويقتل كل منهم جاره وعصوا قوانين الملك » .

على نفس هذه البردية وصف للطريق الساحلي من « را – بح » إلى القنطرة الحالية . إنها نفس البلاد ، وهو أيضاً طريق « الشامات » الشهير في سيناء الذي يقابله « درب الحج » في الجنوب الذي يمر بمناطق الخروج الأسطورية ، عيون موسى وجبل موسى وحمامات فرعون وهضبة التيه وجبل المناجاة وجبل الطور أقصى الجنوب ، والوادي المقدس طوى الذي لم يتعرف عليه أحد بعد . لكن هذا كله ، في الشمال أو في الجنوب ، صار بعيداً الآن ، في الزمان ، وفي المكان أيضاً .. هنا دولة مدججة بالسلاح تقف تقطع طريق الشامات الشمالي وطريق الحج الجنوبي ..

عند البوابة القريبة التي تتوسط سلك الحدود المصرية ، يقف الكشك الخشبي الصغير ، الذي يتسع لشخص واحد ، والجندي ضئيل الجسم يحمل البندقية الآلية القصيرة خلف كتفه . على جدار الكشك من الداخل تليفون الميدان القديم .. انتهى الجندي من الكلام فيه ، والتفت يحدث مسئول الرحلة .

– للأسف لن تستطيعوا التقدم أكثر .

– خسارة . لماذا ؟

– الضابط نائم ولا يمكن إيقاظه .

يبدو واضحاً أن الضابط المعني موجود داخل كشك من مجموعة الأكشاك التي يرونها قريبة على يسارهم ، والتي تتوزع بينها أشجار زيتون ولوز ونخيل . بالطبع في مثل هذه الحالات لا يكون مسموحاً

للجندى ، ولا لأحد آخر ، التوجه لإيقاظ الضابط ، والمدنيون طبعاً لا يستطيعون الدخول إلى الأكشاك التى تحيطها أسلاك شائكة كثيفة . حقاً يتحرك بين الأكشاك عدد من الجنود ، لكن لا يبدو أنهم يدركون وجود أحد غيرهم ، أو يهتمون بهذه الأفواج السياحية .

الآن ليس أمام الجميع إلا التقاط الصور التذكارية للحدود التى يرونها لأول مرة . كل أسرة تلتقط لنفسها عدداً من الصور . وهو ، ناجى ، فى اللحظة التى يفكر فيها فى زوجته وأطفاله ، يجدهم قريبين منه ، مع صديقه سمير وزوجته وطفلتيه . سمير منهمك فى التقاط الصور للأسرتين ، وجواره مباشرة يتقدم الابن الأكبر ، زياد ، ليقف بعيداً عن التصوير .. ويجد ناجى نفسه جوار مسئول الرحلة مرة أخرى ، ورجلين من زملاء المسئول يسمعه يحدثهما .

— كيف أتصرف الآن ؟ إننا ندخل كل يوم بلا مشكلات .

لا يرد الاثنان . يتدخل هو ، « ناجى » .

— أليس هذا السلك الثانى هو الحدود الإسرائيلية ؟

— هو ذا .

— وهل فى برنامج الرحلة دخول دولة إسرائيل ؟

— لا ...

يهتف مسئول الرحلة بذلك فى استنكار شديد مفاجئ .

— إذن ما هى المشكلة ، وإلى أين كنت تريدنا أن نتقدم ؟

— كنا سنعبر البوابة .

يعود ناجى من جديد يتأمل ما يقع خلف البوابة . ليس غير الطريق الأسفلتى الجديد غير المستعمل والذى يفصل بين حدود الدولتين .

— تقصد نقف فى هذا الطريق ؟

— بالضبط .

— وهكذا نكون تقدمنا أكثر ؟

— طبعاً .

يبتسم ناجى الذى يضطر أن يكظم دهشته . يقول :

— لا أظن أن خمسة أمتار مسافة كبيرة .. ثم إننا لن نرى أكثر مما نرى الآن .. ونحن أيضاً محتاجون أن نرى البلدة نفسها أكثر من الحدود .

لكن مسئول الرحلة لا يزال يبدو ساخطاً . ينظر إلى زميليه ويتحدث إليهما وهما يتقدمان نحوه ، ثم وهو يتقدم معهما ولا يتوقف عن الكلام .

— لا فائدة . لن نتقدم أكثر فعلاً . هيا نعود إلى البلدة . كنت أحب أن تكون الرحلة أفضل . نحن نعبر البوابة كل يوم ونقف فى الشارع كل يوم مع كل فوج . أنا لا أصدق أن الضابط نائم . وحتى لو كان ذلك فالجندى يعرف أن الضابط يسمح لنا بعبور البوابة والوقوف فى الشارع .

يرى ناجى الشمس تزداد ارتفاعاً ، والجندى الصغير يقف جوار الكشك والبوابة غير مبال بانصرافهم . يدرك ناجى لماذا تبدو ثياب الجندى قديمة حائلة ، ويدير وجهه إلى الفضاء فيعرف أيضاً لماذا يبدو له منسياً فى هذه الدنيا ..

* * *

الأغنيـــات

حط الصمت الغريب عليهم والسائق يتحرك بهم إلى البلدة . نفس الصمت الذى شملهم حين تحركوا من الشاطئ قبل ساعة ونصف .

كانوا ، فيما يبدو ، ولا يزالون، يغالبون النوم ، أو يدخلون فى حالة من الترقب للطريق والرحلة . لكن لماذا يحيط بهم نفس الصمت الآن والوقت اختلف والرحلة تبدأ فى الإياب ؟ . ما يعرفه ناجى هو أن هؤلاء الناس زملاء فى شركة واحدة يعمل فيها صديقه سمير الذى دعاه وزوجته ، لصحبتهما وأسرته هذا الأسبوع .. ومنذ بدأت الرحلة من القاهرة لا يبدو أن أحداً يعرف أحداً . حالة من التوجس تلبست الجميع . حتى النساء لم تقتربن من بعضهن . بسمة هنا ، تحية هناك بأطراف الأصابع ، فى الوقت الذى اكتفى فيه ناجى وزوجته ، اللذان لا يعملان فى نفس الشركة معهم ، بصحبة سمير وزوجته ، وتعرفا فقط ، فى اليوم التالى للوصول ، على أسرة أخرى فى الشاليه المجاور .

ارتفعت الألفة بسرعة بين نور الصباح زوجة ناجى وخديجة ، الزوجة التى فى الشاليه المجاور ، وكان طبيعياً أن يتعرف ناجى على جواد زوج خديجة بعد أن تعرفت الزوجتان كل منهما على الأخرى . لقد رأى فيه شبهاً كبيراً بأحد أصدقائه، وقال له ذلك فعلا، لكنه اكتشف نسيانه لاسم صديقه تماماً فأحس بالحرج . كان يود أن يؤكد على هذا التشابه بإعلان اسم صديقه دلالة على صدقه ، رغم أن جواد زوج خديجة لا يعرف بالطبع أصدقاء ناجى . ولم يهمل ناجى التفكير بعد ذلك فى اسم صديقه حتى يصل الحديث المقطوع مع جواد ، عن التشابه بينه وبين هذا الصديق المنسى .. الحقيقة أن ناجى ، منذ أن وصل الأتوبيس بهم إلى

معدية الفردان فى طريق قدومهم ، وغمر وجهه وجسده هواء القناة ، وهو يحاول الهروب من ذكريات كثيرة ، بمحاولة مراقبة من حوله من أعضاء الرحلة ، لذلك راقته كثيراً حكاية المرأة التى فرضت نفسها على نور الصباح وخديجة وشادية زوجة سمير . قالت له نور الصباح إنها امرأة لطيفة اقتربت منهن على البلاج ، ودخلت فى الحديث معهن بلا مقدمات ولا دعوة من أحد ، وكن يتحدثن عن هذه الشواطئ الواسعة كيف يتركها الناس ويذهبون إلى الاسكندرية ورأس البر وبورسعيد التى صارت مزدحمة وقذرة . وحدثتهن المرأة ، واسمها شهرزاد ، عن زيارتها للعريش مع زوجها لأول مرة منذ عامين ، وكيف أنهما لم يعودا إلى القاهرة بعدها . فى نفس اليوم الذى قررا فيه عدم العودة تسلما شقة واسعة من المحافظ ، وتم نقلهما من التدريس بالقاهرة إلى التدريس بالعريش ، وازداد مرتبهما إلى الأضعاف بحكم وجودهما فى منطقة نائية ، وابتعدا هكذا عن الأهل والجيران ، وازداد حبهما . ذلك يبدو واضحاً حين ينزلان إلى البحر . شهرزاد تحب البحر فتأتى كل يوم ، زوجها لا يحب البحر لكنه يحبها فيأتى كل يوم . تنزل هى تتقلب فى المياه ، وهو الذى لا يعرف العوم أيضاً ، لا يفعل أكثر من الوقوف خلفها ، جاعلاً من جسده مقياساً لعمق الماء فلا يسمح لها بتجاوزه ، يقف دائماً بحيث لا يرتفع الماء إلى صدره . لا يرى أنه بوقوفه هكذا يترك نفسه فريسة سهلة للموج ، الذى إذا اشتد حمله بعيداً ، وطرحه تحت الماء ، على الأصداف والرمال ، وقلبه مرة أو مرتين ، مما يجعله يقوم فزعاً باحثاً عنها منادياً عليها قبل أن يفتح عينيه ، وتكون هى قد استعادت مكانها وزمامها ، وتقف تنظر إليه بفيض من فرح وسعادة .

هل يُسعد المرأة فى بلادنا أكثر من زوج يحبها ؟ . تساءلت نور الصباح وهى تحكى لناجى حكاية شهرزاد وزوجها ، وقالت أيضاً إنها ، شهرزاد هذه ، تتعمد أحياناً الاختفاء قليلاً من الوقت تحت الماء بعد

هجوم الموجة لتزيد من قلق الزوج ، وتنظر بعد ذلك فى خبث إليهن ، نور الصباح وخديجة وشادية ، تشهدهن على حب زوجها لها ، وقدرتها على تعذيبه . لقد قالت لهن إن ذلك لم يكن يحدث فى القاهرة قط وأجهشت بالبكاء .

لم يعرف ناجى شيئاً عن شهر زاد وزوجها . رأى مشهدهما فى الماء يتكرر كل يوم . لم تنقل إليه نور الصباح أية معلومات إضافية . ولم يدر أيضاً أن أكثر أعضاء الرحلة تآلفاً كان الأطفال ، صبية وبنات ، وبينهم أبناؤه زياد ووائل وإياد أصغر الجميع المشغول بالأصداف تحت الماء القريب من الشاطئ .

الأطفال هم الذين كسروا الصمت الذى دخل فيه الجميع منذ لحظات . صوتهم يرتفع الآن ، تماماً كما ارتفع وهم قادمون يوم الجمعة الماضى من القاهرة ، يغنون مع صوت المسجل الذى انطلق من السيارة ، وها هو زياد يقود الأولاد فى الغناء ..

كيف حفظ زياد كل هذه الأغنيات حقاً ؟ . أغنيات هذا الجيل سريعة الإيقاع ، التى لا يطيقها ناجى ولا نور الصباح ، ولم يفكرا يوماً فى شراء شريط واحد منها ؟ . ناجى يشعر الآن بحلاوة من نوع خاص فى هذه الأغنيات ، ربما لمناسبتها جو الرحلة والمرح . العجيب أن نور الصباح سألته كيف حقاً تبدو هذه الأغنيات جميلة حين تنطلق من مسجل السيارة المسرعة ؟ . لكن الجميع يسمعون مسئول الرحلة يهتف فجأة :

— رفح يا جماعة .. آخر الشارع هذا نقطة حدود أخرى .. يمكن لكم التقاط الصور وشراء ما تحتاجون من محلات الشارع .. سنقف هنا ساعة كاملة قبل أن نتحرك إلى الشيخ زويد .

* * *

رفح

شارع غير طويل ، مقفول عند النهاية ببوابة مفتوحة يقف أمامها جندى الحراسة المصرى . خلف البوابة المصرية الشارع الأسفلتى الذى يضيق هنا قليلاً ، وخلفه البوابة الإسرائيلية .

الشارع هو هو لم يتغير حتى ليكاد يكون كأنه تركه بالأمس .. فقط كان فى مواجهة الجنود المصريين جنود الأمم المتحدة ، ولم يكن المصريون والإسرائيليون يرون بعضهم . لكنه لم يمض وقتاً طويلاً فى رفح ذلك الوقت . لقد حُمل من مدرسة التدريب فى الهايكستب ، وهو بعد لم يقض ثلاثة أشهر ، إلى هنا عند أقصى نقطة فى الحدود .

تجاوزتهم دبابات الباتون بسرعة ، ولم يهتم القائد الإسرائيلى بتصفية المقاومة لأنه كان مهتماً بالاندفاع السريع إلى العمق العملياتى . ترك مهمة التطهير لقوات أخرى قادمة بعده ..

عرف ناجى فيما بعد أن هذا القائد هو « جونين » الذى سيكون عام ١٩٧٣ قائداً للقوات الإسرائيلية فى شبه جزيرة سيناء كلها ، وسيصطاد ناجى كثيراً من دباباته .

لا كشك للحراسة هنا .. ذلك ما يبدو واضحاً للجميع . الجندى الصغير يقف فى الفضاء خلفه ضابط شاب يجلس ، وحوله ثلاثة جنود واقفون يستمعون إلى حديثه . برج الحراسة الإسرائيلى يعلو مبنى عريضاً ، حوله أشجار كثيفة يتحرك بينها عدد من الجنود .. خلف البوابة الإسرائيلية عدد كبير من النساء والرجال العرب البدو يلوحون لرجل يقف فى الجهة المصرية . يتقدم ناجى منه فيجده شيخاً فى حوالى السبعين يقول لناجى بمجرد أن يراه :

— هادول أولادى وأحفادى . لى ثلاثة أيام هنا وكل يوم فى نفس الموعد يأتون ليروننى وأراهم . سأعود إليهم غداً . هنا بقية عائلتى . اخوانى وأخواتى وأولادهم وأحفادهم ..

لم يكن ناجى قد سأله عن أى شىء . يبتسم للرجل ، ويرى صديقه سمير ، وخلفه شادية ونور الصباح والأطفال يدخلون فى زقاق ناحية اليمين . يلحق بهم . يحدثه سمير :

— أخبرنا مسئول الرحلة أنه عند نهاية هذا الزقاق امتداد للحدود ، سنكون أيضاً قد دُرنا حول البوابتين ، ويمكن أن نلتقط صوراً دون توتر أو اعتراض من أحد . ألا تلاحظ هنا أن العَلَم الإسرائيلى أعلى قليلاً من العَلَم المصرى .. ؟

كان العلمان فى منطقة الحدود التى زاروها منذ قليل يكادان يتساويان فى الارتفاع . هنا يبدو ارتفاع العلم الإسرائيلى شيئاً مقصوداً . ربما لأن الشارع تجارى يأتيه عدد كبير من المصريين كل يوم . يفكر ناجى ، لكنه ينظر فلا يجد أولاده الثلاثة . اختفوا فجأة . يلتقط بسرعة الصور التى يريدها صديقه سمير . يلاحظ أن خديجة وزوجها جواد قد لحقا بهم ، ويلتقطان صوراً أيضاً . يعودون بسرعة إلى الشارع .

الشارع ليس ضيقاً . بل يبدو واسعاً من أثر الانسكاب الغامر لضوء الشمس . حين توقف السائق منذ قليل كانت هناك حافلات أخرى تقف منتظرة انتهاء ركابها من الشراء من المحلات التى على الجانبين . الزحام واضح أمام وداخل المحلات . الجانب الأيسر من الشارع أكثر إشماساً . الجانب الأيمن فيه ظل ضئيل لذلك اشتد به الزحام . التوابل كثيرة باهرة للعين . رائحتها النفاذة تشعشع فى الفضاء الساكن . فلفل أسود ، وأحمر ، كمون ، كسبرة ، دارصينى ، بن ، بهارات ، زعتر ، زعفران ، عجوة ، جوزة الطيب ، مستكة ، سكر نبات صينى ، مكسرات بأنواعها ،

زبيب ، جوز هند ، روائح وشامبوهات وصابون زينة وصابون مزيل للبقع ، وشاى أسود وشاى أخضر ، وبريطانيا التى احتلت الهند من أجل التوابل والشاى ، والحروب التى قامت فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر من أجل طريق التوابل والشاى .. يا إلهى كم نحن قريبون من آسيا إذن .. ناجى يهتز مفاجأة .. إنه فى آسيا بالفعل .. شىء مثير حقاً أن يكون الانتقال من افريقيا إلى آسيا سهلاً على هذا النحو ، مجرد عبور لقناة السويس . ألهذا حقاً تكالبت الدنيا على البلاد ؟ .. سيناء هى المفصل ، أو العقدة الطبيعية التى تلحم افريقيا بآسيا ، ومصر بالمشرق العربى . فى سيناء تجتمع مصر والشام والجزيرة العربية جيولوجيا وتضاريسيا . حقيقة جغرافية . السهل الساحلى الذى يمتد جوارهم منذ خروجهم من العريش فى الصباح ، والذى كان يمتد جوارهم أيضاً وهم فى طريقهم إلى العريش يوم الجمعة الماضى ، هو استمرار لسهول فلسطين ، والهضبة الوسطى الشهيرة هى امتداد مباشر لهضبة الصحراء أو بادية الشام ، والجبال الجنوبية هى عقد الالتحام بين جبال حافتى الأخدود ، البحر الأحمر ، فى حوض النيل والجزيرة العربية . لكن آسيا هى آسيا وافريقيا هى افريقيا وهو يشعر بنفسه يتصرف كافريقى حقيقى . كيف يكون تاريخ الزنوج مثل تاريخ البراهمة ، وهل تمبكتو مثل دلهى أو شنغهاى ؟ .

يملأ ناجى عينيه من الفضاء الواسع كأنما يبحث عن سبيل للحرية . تمشى عيناه على الجوز واللوز والفستق والهيل دون أى تأثر . يستمع للبائع الصغير الذى يحدّث نور الصباح زوجته وشادية زوجة سمير .

— هذه كاكاو إسرائيلية . استيراد إسرائيل . لطيفة ورخيصة .
— لكنى لا أريد أى بضاعة إسرائيلية .
— إذن إليك بهذه الكاكاو التى هى من استيراد نابلس . أنا والله لا أحب إسرائيل .. أنا فلسطينى .

تبتسم نور الصباح وشادية وتبدآن فى الشراء ، شيء ما يجعل ناجى يتراجع إلى الخلف قليلاً ليرى صفاً طويلاً من أذرع النساء الممدودة إلى البضائع فى حركة لا تتقطع . أذرع بيضاء وسمراء . السمراء أكثر من أثر البحر . تهتز الأساور والغوايش حول المعاصم الرقيقة . يظهر تحتها الخط الأبيض ، الأكثر بياضاً من الجلد . هذه سيدة لم تنزل إلى البحر كثيراً . هذه لم تنزل بعد . كل هاته النسوة ينزلن إلى الماء ، كل هاته النسوة لا يخلعن ثيابهن على الشاطئ ، ينزلن بالجينز والبلوزات القاتمة . لم تعد الشواطئ ملاعب حسن وجمال . لم يبق إلا أن ينزلن بالنقاب . يفكر ناجى . تطلب منه زوجته أن يحسب معها قيمة مشترواتها .. تكتشف أنها أكثر مما ينبغى . تعيد بعض الأشياء منها كيس الكاكاو الذى هو من استيراد نابلس . كذلك تفعل شادية . يتأمل البائع ما تعيدانه . يبتسم ولا يعلّق .

* * *

الفتاة الفلسطينية

لم يفكر ناجى ما إذا كان عدم إدراكه للأيام سيمتد إلى هنا أيضاً .. وهو الآن لا يعرف ما إذا كان اليوم هو الخامس أو السادس للرحلة . الأمر لا يتعلق بتشابه الأيام فى المصيف ، ولا لأنه لا يقرأ الصحف اليومية التى يحرص سمير على شرائها . هى عادة تأصلت فيه منذ سنين ، وهو لا يذكر اليوم الذى بدأ فيه ينسى . اليقين الحقيقى عنده ، هو أنه يميز يوم الجمعة فقط من سائر الأيام .

فى هذا اليوم من كل أسبوع تنطلق مكبرات الصوت من الجوامع التى فى إمبابة كلها ، وفى وقت واحد ، تشتم فى النساء واليهود والنصارى ، ولا تفلح محاولاته إغلاق النوافذ فى حجز الصوت عنه . لا يدرى ناجى لماذا فكر الآن ، وهو يقف فى منتصف الشارع ، أنْ يعرف فى أى يوم للرحلة هـو ؟ ..

ليس أمامه من وسيلة إلا استرجاع الرحلة منذ يومها الأول . لكن هذا شيء مضحك . يبتسم . كيف حقاً يفعل ذلك ؟ ثم ماذا يعنى فى أى يوم هو ؟ لقد وصل مع الجميع يوم الجمعة الماضية . لم يسمع فى هذا اليوم أصوات ميكروفونات . راح الأتوبيس الكبير ينهب الأرض بعد أن عبر معدية الفردان . سألته زوجته هل هنا كنت تصطاد الدبابات ؟ وهز رأسه بالإيجاب ولم يرد ، بدا أن السائق لا يريد التوقف أبداً ، هكذا تمتم بعض الركاب ممن أرادوا التوقف لصلاة الجمعة ، وسكتوا بسرعة حين أدركوا أن على السائق أن يصل بهم إلى العريش ثم يعود فى نفس اليوم بالفوج السابق من موظفى الشركة .

لقد وصلوا ورأوا الشاطئ الذى يبدو فى نشرات الأخبار ساحر الجمال ، فراحت الأعناق تشرئب إلى أعذاق البلح على النخيل العالى . لا يزال البلح أخضر ...

فى نفس اليوم اشتكى الأطفال من قناديل البحر التى لا يرونها . فى نفس اليوم فى المساء ، وبينما نور الصباح وشادية تجلسان على الشاطئ تراقبان الأطفال ، كان هو وسمير قد توغلا قليلاً فى الماء .

كان البحر دافئاً ، الموج يهدهده على بساط مخملى ، إحساس بالأمان جعله ينصرف عن متابعة الأطفال ، ويدخل فى حديث عن جمال الماء والهواء والدنيا حتى إن سمير تأمله فى غاية الدهشة ، وقال :

— لا أظن أنك ناجي الذى كان منذ ستة أشهر .
— ماذا تقصد ؟
— لقد بدا لى أن حرب الخليج لن تنتهى إلا وأنت ميت أو مجنون .
— أنا نفسى لا أصدق أنه يمكن أن يسعدنى شيء .
— إذن أنظر .

هتف سمير وهو يشير إلى الشاطئ . نظر ناجي ليرى فتاة طويلة ترتدى فستاناً أسود بنصف كم ينزل عن ركبتيها قليلاً ، وتقف أمام نور الصباح وشادية . بدا واضحاً أنها تشتبك معهما فى حديث طيب . رآها ممتلئة قليلاً ، شعرها الأسود متروك بحرية خلف ظهرها ، وبان له وجهها من بعيد أبيض مستديراً لامعاً كما تلمع ذراعاها وربلتا ساقيها . كانت أيضاً حافية ، وعلى الفستان الأسود رسوم خضراء وحمراء وصفراء باهرة . رأى نور الصباح تشير إليه ، والفتاة تلتفت تتابع الاشارة وتبتسم ثم تمضى سائرة على مهل فوق الرمال القريبة من نهايات الموج ، الرمال المبتلة دائماً ، وتهز ذراعيها للأمام والخلف فى توقيع هادئ ، سعيدة منتشية واثقة تحب العالم وتشعر أنه خلق من أجلها وحدها .. هكذا خيل إليه بدقة .

لكن هذا لا يكفى ليعرف فى أى يوم هو . الحقيقة أنه لم يعد يرغب فى ذلك الآن . ليس له أى معنى . سيتعرف موعد عودتهم للقاهرة حين تستعد نور الصباح لذلك . لكن شكل الفتاة يعود إليه بقوة . تكرر ظهورها كل يوم بعد ذلك ، فى نفس الوقت تقريباً ، حينما تبتعد الشمس ، ويتورس الأفق ، وتشتعل السماء فوق النخيل الذى يتمايل أكثر لاشتداد الريح ، وتظهر عند نهاية الأفق سحب رمادية قادمة من تحت الماء ، وماء البحر يزداد دفئاً وارتفاعاً واخضراراً ، والأولاد لا يريدون الخروج منه ، تظهر هى بفستانها الأسود المطرز والموشى والمحلى بالألوان الباهرة ،

وتمشى على مهل فوق الرمال المبتلة الثابتة كمهرة واثقة . صار يحب ظهورها هذا كل مساء . الشاطئ دائماً خال ، قليل رواده ، لذلك تعلق قلبه بهذا الجمال المباغت الصغير . قرر أن يسأل نور الصباح عنها فى اليوم التالى لرؤيتها ، وقبل ظهورها بوقت قصير ، لكنه فوجئ بنور الصباح تسأله :

— هل رأيت الفتاة التى وقفت تكلمنى أنا وشادية أمس ؟
— نعم . لقد وقفت تتكلم معكما فترة طويلة .
— إنها فلسطينية . من غزة جاءت تمضى أسبوعاً فى العريش . لم تصدق أن لدينا أبناء يحملون أسماء زياد وإياد ووائل ، لقد سعدت جداً بذلك .
— يبدو أنها تلميذة فى الرابعة عشرة .
— عجيب . لقد بدت لى وأنا فى الماء أكبر من ذلك .
— إنها ساذجة للغاية . لقد قطعت الشاطئ أكثر من مرة تبحث عن أصدقائها الذين اختفوا فجأة . قالت فى استسلام إنها ستنتظرهم فلا بد أن يعودوا إليها .

تردد ناجي قليلاً ثم قال :
— لكنى رأيتك تشيرين إليها ناحية الماء .
— طلبت منى أن أريها زياد وإياد ووائل فأشرت إليهم ، لقد نظرت إليهم فى غاية الفرح .
— رأيتها وهى تنظر إليهم . كانت سعيدة بحق .

قال ناجي ذلك وسكت . كان فى حاجة إلى الابتعاد قليلاً عن نور الصباح ليبتسم فلا يراه أحد . كيف حقاً فكر أن الفتاة كانت تنظر إليه ؟ .

* * *

الطـــريق

الطريق المسفلت يا جماعة الذى بين سلكى الحدود طريق حديث أنشئ بعد حادثة سليمان خاطر .

يسمعون مسئول الرحلة يقول ذلك ، والميكروباص يبدأ فى الحركة تاركاً الشارع الذى زاروه فى رفح .

كان ناجى قد جلس جوار أحد المشاركين فى الرحلة هذه المرة . الصدفة دعته إلى ذلك . رأى زوجته قد جلست مع خديجة فى مقعد واحد فلم يشأ إزعاج صديقة زوجته . الآن يفكر فيما هتف به مسئول الرحلة . يريد أن يسأله هل يكفى هذا الشارع الضيق ليحجز الرصاص إذا انطلق من أى جهة ؟. بدت له معلومات مسئول الرحلة خاطئة ، وفكر فى جدواها لو كانت صحيحة . لا شىء . الحق عبث والباطل أيضاً .

الأولاد يأخذون فى التصفيق . ينظر ليجد زيادة يقودهم . ينطلقون فى الغناء . « يا أم الشعور الدهب والقلب من فضة » يرى فضة الفضاء تتسع حولهم ، الشمس الذهبية ترتفع ، والطريق غير الممهد جيداً يجبر السائق على البطء فتبدو الحافلة وقد حملتهم حملاً رقيقاً رهيفاً ترتفع وتنخفض بهم كموجة حانية . لكن الطريق يضيق فجأة ، والسائق يحذرهم من إخراج رءوسهم أو أيديهم من النوافذ ، إذ ستقابلهم أشجار كثيفة تصطدم بجوانب العربة ...

لقد جرب ناجى الشوك منذ قليل . بعد أن اشترت زوجته ما تريد تركها ومشى يتلصص على مكان به دورة مياه . دخل من باب بين دكانين ، فوجده يفضى إلى بيت به نساء وأطفال ورجال جالسون ، فارتبك

جداً ، وعاد مسرعاً دون أن يسأل عن شىء . رفع بصره إلى فضاء الشارع ليرى مئذنة على ناصيته . مشى إلى الجامع بسرعة . عبر باب السور المحيط به ليشم رائحة طيارة منعشة . شجرة ليمون طويلة باسقة ، خضراء لامعة الخضرة بفعل ضوء الشمس الباهر ، تنتشر على أغصانها مئات ومئات من ثمر الليمون الأخضر والآخذ فى الاصفرار . انحنى تحت غصون الشجرة ، واتجه إلى دورة المياه ، وعاد ليقطف ليمونة . أصابته الأشواك الحادة للأغصان . هذه أول مرة يقطف فيها ليمون من على شجرة . لم يكن يدرى أن على الغصون أشواكاً وبهذه الحدة . كيف حقاً يجمعون الليمون ؟؟

قطف بحذر ليمونة أخرى وراح يشمها . هل ارتكب إثماً الآن ؟ . هذه الشجرة بالجامع ملك للجميع . شجرة إلهية غرسها نبى لكل الناس من زمن قديم ، الجوامع بيوت الرحمن ، وليس أرخص من الليمون فى مصر ، فهو إذن لا يسرق ولا يأثم ..

خرج من الجامع فرحاناً يشم الليمون الذى فى يده . رأى الشارع أوسع مما هو ، يشعشع فيه النور الأبيض لنهار لم يسبق أن رأته الأرض . يالرجال الأطفال . همس لنفسه . رأى الأطفال يوزعون سكر النبات الصينى الذى اشتروه فيما بينهم ، زياد يمسك بالكيس الكبير ، حوله أخواه الأصغر ، وبنت سمير الأصغر أيضاً . بدا له زياد طويلاً جداً بينهم ، بدا له نوعاً جميلاً من الآباء .

صعد إلى الميكروباص يقرّب الليمون من أنفه . الآن يفعل ذلك ، وينظر إلى الأحواض المزروعة التى تتكرر فى الطريق بين كثبان الرمال المزروعة أيضاً حتى لا تتحرك . سيناء منطقة صحراوية أو شبه صحراوية فى أفضل الأحوال . أمطارها نادرة وإن كانت غزيرة على هذا السهل الشمالى الذى يمشون عليه . تتحول هنا أحياناً إلى سيول فجائية

عنيفة ، ويهطل المطر كأفواه القرب . هذا سر الخضرة الدائمة فى الطريق من العريش إلى رفح والعودة . هنا فى السهل الساحلى موارد مياه شتوية إذن ، ومياه الآبار للصيف . مياه الآبار تخرج عذبة ، رغم قربها من البحر ومن سطح الأرض معاً . البدو يحفرون الرمال حتى المياه ، ويزرعون نخيلهم بدلا من رفع الماء إليه ، بين أشجار النخيل يزرعون أشجار الفواكه ، التين والزيتون والعنب ويزرعون الخضر أيضاً فى ظلال الأشجار . الكثبان الكثيرة يزرعونها بالخروع والزيتون وبعض أشجار التفاح . هذه الكثبان تخفى تحتها خزانات المياه الجوفية . كانت هى جحيم الإنسان هنا ، وعرف الإنسان كيف يمتطيها . الأحواض التى بينها تتكرر كثيراً ، منذ عبور معدية القردان ، وبعد قليل من منطقة تل اللواء المدرع . لماذا يجبر نفسه هكذا على النسيان ؟.

فى النصف الأول من الطريق تبدو معظم الأحواض خالية من الزرع ، نشعت فيها المياه المالحة ، ثم تبخرت بفعل الشمس فتركت الملح الأبيض الناصع الذى يجمعه عدد قليل من العمال فى أكياس سوداء بلاستيكية . بعد نصف الطريق ، حين يبتعدون بما يكفى عن سبخات البحيرات تظهر الأحواض مملوءة بأشجار لا يعرف أحد أعمارها . نخيل ولوز وزيتون وخوخ وعلى سفوح التلال الرملية القريبة أيضاً ، وأحياناً أثل وخروع . تحت السفوح أكشاك من التنك صغيرة أو خيام من وبر . وعلى مسافات متباعدة آبار صنعتها القوات المسلحة ، وأيضاً بقايا حروب . دبابات محروقة ، ومدافع ممزقة ، وسيارات مفككة مدمرة ، ولا بد أن تحت الجميع عظاماً . هل يستطيع مقاومة ما يريد أن ينسكب فى روحه من عذاب جميل ؟ هل سينجح هذه المرة ؟ لماذا لا يريد الاستجابة لنداءات القلب ؟ منذ اللحظة التى وقف فيها على شاطئ القنال يشم رائحة الهواء منتظراً عودة العبارة تنقلهم إلى الساحل الشرقى ووجد رائحة الهواء لم تتغير رغم أنه ليس فوقه نار ولا دخان ، وهو يقاوم كل ذكرى . من عاد يذكر ذلك الآن ؟ وما جدوى الأمر كله ؟

يفكر والأحواض تظهر من جديد أمامه بكثافة لم تحدث من قبل ، لا تعود الآلات العسكرية المحروقة تقابلهم . يقتربون من «الشيخ زويد». لماذا حقاً يتضمن برنامج رحلتهم هذه الزيارة للبلدة الصغيرة ؟ يسأل دون تمهيد الرجل الذى يجاوره فى المقعد فيرد باقتضاب :

ـ لا أدرى .. ربما هناك سوق آخر ..

ويسكت كمن لا يريد الاشتراك فى الحديث . يفكر ناجى كيف حقاً لم ير هذا الرجل من قبل إلا يوم الجمعة الماضية ، يوم التحرك من القاهرة. هل لا يخرج الرجل إلى الشاطئ؟ لا بد أنه يخرج لكن كل واحد يختار لنفسه دائماً مكاناً بعيداً عن الآخر .

قبل الصعود إلى الميكروباص رأى ناجى الرجل فى وضع مربك . ربما كانت نظرات ناجى إليه هى سبب ارتباكه . لذلك فضل ناجى أن يسكت ، لا معنى لفتح حوار من أى نوع مع الرجل . راح ينظر إلى الطريق . إلى النخيل المتزايد بكثرة مدهشة ! ليست صدفة أنه جلس جواره إذن ، لقد تعمد ذلك ...

لم يرَ ناجى من قبل نخيلاً ارتفعت الرمال أحياناً إلى حد ثمره من البلح إلا هنا فى صحراء سيناء . البلح نائم فوق الرمال . يعرف أنهم يحفرون حتى سطح الماء ثم يزرعون النخيل. لكن لا بد أن حركة الرمال هنا قاسية جداً . نخيل عجيب ، من العريش يتساقط البلح أخضر وتدوسه الأقدام . تجمعه الفتيات الصغيرات الفقيرات غذاء للحيوان والطير . كثير من نخل العريش فارغة أعناقها من فرط تساقط الثمر . لا بد أن الرطوبة هى سبب تساقط البلح مبكراً . رطوبة الشاطئ عالية . النخيل على الشاطئ رائع لكن لا يعنى به أحد . نخيل إلهى زرعته الملائكة فى زمن قديم . يا الله ؛ كيف حقاً واتت مريم العذراء القوة لتهز جذع النخلة فيساقط عليها الرطب الجنى وهى نفساء متعبة؟. لا بد أن الله سخر لها

الريح فلا قدرة لامرأة على هز نخلة لها كل هذا الجذع. النخيل شجر كرمه الله في القرآن. **(كأنهم أعجاز نخل خاوية)** و**(ونخل طلعها هضيم)** و**(والنخل باسقات لها طلع نضيد)** أين قرأ هذا الكلام وفي أي كتاب. صفحات الورق القديم تبعث أمام عينيه. مذكرات الجندى التي لم تكتمل، ولم يف، هو ناجي، بوعده بنشرها. ترى هل سيرى «يحيى» مرة أخرى. لقد دخل الجندى الحرب آخر مرة ولم يعد منها، وهاهي حرب جديدة قامت ويحيى لم يزل في البصرة فهل سيراه؟ وهل سيسأله يحيى عن مذكرات صديقه العراقي «سُبْتي»؟ هذا النخيل لا يرحم. أينما يولي وجهه يجد النخيل. في الصيف والشتاء أكل ناجي التمر مع اللبن الحامض في شوارع بغداد بفلوس قليلة. في الظل وفي الهجير، وحلاوة «البرحي» الأصفر الصغير الناعم كشفاه الفتيات، كخدودهن، لاتفارق فمه، في بغداد، وفي البصرة على شاطئ العشّار الصغير وقت الظهر، وهو خارج من سوق الهنود تطارده الرائحة القديمة للتوابل والعطور، متخيلاً أنه يرى سندباد داخلاً بسفينته من شط العرب. لماذا لا يترك ناجي دمعة ولو وحيدة تهرب من عينيه. لعل ذلك سبب الضيق الذى كثيراً مايُمسك بنفسه محاصراً به.. فلتُفتح إذن قنوات العذاب الرهيفة فلا ينفجر. لقد كان هناك، في البصرة، في مايو العام الماضي. كانت البصرة لا تزال مهدمة، مؤها لا يزال أجاجاً، شوارعها محفورة بالقنابل وأنهارها جافة أو راكدة والخوف من الكوليرا يملأ الفضاء. لم تدهشه قلة الناس في الشوارع وخلو المركز التجاري للمدينة رغم مرور عام على تحرير الفاو. لم يعد شارع الثورة يكتظ بالمصريين كما كان منذ أعوام. بدا له أن الشاب المصري الوحيد «يحيى» الذى بقي في الشارع في سنتي الحرب الأخيرتين، والذى التقى به مع نهاية الحرب في العام السابق، يريد أن يقول شيئاً. الفندق لا يزال خالياً من العمال، وصاحبه الذى تركه وسافر إلى الموصل حيث موطنه الأصلي لم يعد بعد، لقد استشهد ولداه في الحرب، في الجنوب،

في معركة بحيرة الأسماء الشهيرة قرب البصرة ، ولا يظن « يحيى » أنه سيعود مرة أخرى ، ربما يبيع الفندق وهو هناك في الشمال . وسأل ناجي يحيى ما إذا كان يحب أن يحمّله رسالة إلى أهله كما فعل العام الماضي .. أجاب « يحيى » :

— العام الماضي لم أحمّلك رسائل لأحد . لقد سألتني حقاً عن رسائل لكني لم أحملك أي رسالة .

— معك حق .. لكني أراك تريد الحديث .

— أحببت أن أسألك عن مذكرات « سُبْتي » هل ستنشرها حقاً ؟ .

كان مؤدباً للغاية ، فالمذكرات مع ناجي منذ عام . وعده بذلك ناجي مرة أخرى ، وها هو عام آخر يمضي ولم ينشرها . ربما لا ينشرها أبداً لأن أخبار يحيى ستنقطع إلى الأبد .. ولن يسافر هو إلى العراق ، ربما ينقضي ما بقي من العمر قبل أن يرى البصرة مرة ثانية ، ويحيى إما قتلته الحرب الأخيرة ، أو عاد إلى الاسكندرية ، ولم يعد يرغب في شيء إلا النسيان بعد كل ما رأى من هول ... ولا يزال النخيل في الطريق يحاصره . آخر مرة رأى نخيل البصرة كانت آلاف وآلاف منه واقفة جذوعاً دون رءوس ، من البصرة حتى رأس البيشة آخر نقطة في مثلث الفاو ، فهل أبقت الطائرات الأمريكية الجذوع التي وقفت دون أصحابها في الحرب التي دارت بين إيران والعراق ؟ أم إنها الطائرات الأمريكية ، عجنت هذه المرة جذوع النخيل بالطين برءوس العباد الذين عادوا بعد تحرير الفاو ؟..

لكنه يريد أن يبتعد عن كل ذكرى أليمة ، كان عليه أن يدرك القطيعة بينه وبين أصدقائه في بغداد والبصرة ، منذ اليوم الذى اختفت فيه « منزى » ؟ هل كان اسمها كذلك حقاً ؟ ... لم يعد يتذكر . لكنه يتذكر جيداً كيف أتت إليه في فندق المنصور مبتسمة لتبدى إعجابها بإحدى قصصه،

كيف اختفت بعد أول لقاء على غداء . لقد تمددت في اللقاء الأحلام إلا أنه لمح نظرة رعب مفاجئ في عينيها . كانت تحملق في منضدة بعيدة ، عليها رجال لم يرهم في الفندق من قبل ، ولم يرهم بعد ذلك . تماماً كما لم يرها .. كيف لم ينتبه إلى أي معنى لما حدث إلا متأخراً جداً ؟.. بعد أن سقطت صواريخ كثيرة على بغداد ، بعد أن تم ضرب البصرة من البر والبحر والجو والشرق والغرب والشمال والجنوب . كانوا يحاولون اختراق الكرة الأرضية من البصرة لابد، فهل بقي شيء من النخيل الآن ؟. يحتاج النخيل إلى جهد ومشقة وهواء جاف . لعل ذلك هو سبب سقوط النخلة الكبيرة بين الشاليهات على الشاطئ أمس . تزاحم عليها الصبية والبنات الفقراء من البدو ممن يدورون على الشاليهات يسألون عن بقايا طعام لحيواناتهم وطيورهم ، وربما لهم أيضاً . صبية وبنات وأطفال بيض وشقر وذوو عيون ملونة جميلة ، أطفال كالدمى سحناتهم أقرب إلى سحنات أهل الشام ، راحوا يفصلون الأعذاق نفسها من الجذع ، بعد أن جمعوا البلح الأخضر الساقط منها .

كان جذع النخلة طويلاً أسود ضخماً تمدد في النهاية وحيداً مقتولاً بقوة خرافية . ندت عن ناجي آهة أمس ، ساعة رأى المنظر المهيب . إلى هذا الحد شاخ النخيل ، ومن الذي أودى به إلى هذا الحال ؟..

* * *

الحوار على المقعد

— تعرف أنها رحلة سخيفة جداً .

يقول جاره في المقعد فجأة . لم يبدُ أنه يستكمل الكلام الذي دار بينهما منذ قليل وانتهى بسرعة . يبدو ، مثل ناجي ، عائداً من شطحة طويلة . يقول ناجي :

— لكننا سنرى الشيخ زويد بعد قليل .

يرد الجار بسرعة .

— وماذا تظننا سنرى ؟ شيء أضرَط بالتأكيد ، أخرى أيضاً إذا شئت..

لا يفهم ناجي سر هذه اللغة السوقية لجاره الذي بدا متضايقاً بشكل حقيقي . ربما يحدث ذلك بسبب ضيق المقعد ، أو لأن الشمس في العودة الآن أحمى وتضرب النافذة من ناحية الجار . لكن هذا غير كاف . يتذكر ما حدث منذ قليل ، وهو يقف مع زوجته أمام البائع ، حين أمسك بزجاجة صغيرة ليس عليها أية بيانات تشير إلى ما بداخلها .

— ما هذا ؟...

سأل البائع الذي ردد بصره بينه وبين زوجته وزوجة سمير ، وهذا الشخص الذي يجلس جواره الآن . أجل . كان قريباً جداً . وقال البائع في شبه همس :

— أشياء رجالية .

بدا البائع خجولاً . على وجهه رجاء خفي لناجي أن يتفهمه بسرعة . بل بدا كمن يرتكب إثماً .

أعاد ناجي الزجاجة إلى مكانها . لاحظ أن الرجل الذى يجلس جواره الآن ، والذى كان قريباً منهم ، لم يتزحزح .

ترك ناجي الدكان ومعه نور الصباح وشادية ، اللتان انفصلتا عنه ودخلتا دكاناً آخر ، بينما وقف هو وسط الشارع ، وبطريقة خبيثة تصنّع خلالها أنه يتطلع إلى الشمس التى تعلو فى الفضاء ، اختلس النظر إلى البائع الذى رآه يسلم « زجاجة » إلى هذا الرجل ويتسلم ثمنها . رأى الرجل يضعها بسرعة فى جيب قميصه. لابد أن الرجل رآه أيضاً وهو ينظر إليه، لابد أن ذلك هو سبب ارتباكه ذلك الوقت ، وربما لذلك يحدثه بهذه الطريقة السوقية . وفاجأه الرجل قائلاً :

— هل تعرف أن جميع الركاب اشتروا الكريم .

إذن كل ما فكر فيه ناجي صحيح .

— إلى هذه الدرجة هو مطلوب ؟

— قال لى البائع إن كل الرجال فى الرحلات السابقة أيضاً اشتروه .

يبتسم ناجي ويقول :

— هل تظن أن كل الرجال يرون الزجاجات كل مرة ؟

ويجيب الرجل بثقة :

— يكفى أن يعرف واحد فينتشر الخبر .

يسكت ناجي قليلاً ويقول :

— أنا أيضاً اشتريت .

لا يعرف ناجي لماذا يكذب ، ولا يفهم أى معنى لما قاله الآن . ربما أراد أن لا يُشعر الرجل بالحرج ، لكن هذا أيضاً أمر مشكوك فيه . العجيب أن الرجل يرد عليه قائلاً :

— رأيتك تشترى فابتسمت .

وتحلو لناجي السخرية بالرجل فيتساءل :

— حقاً ؟

يجيب الرجل على نحو مباغت :

— حقاً .. والأهم أنى رأيت النساء أيضاً يشترين . عدد كبير من النساء اللاتى معنا فى الرحلة اشترينه مع أنه كريم رجالى كما تعرف .

لا يجد ناجي شيئاً أقل من الجنون يفكر أنه قد مسّ الرجل. لا يشاء النظر إليه . يفكر أنه قد يرتكب جريمة بعد قليل . يفكر أن ينسحب بعيداً عنه فى هدوء . لكن المقاعد ممتلئة والأطفال نيام فى مجلسهم ، و« إياد » الصغير ، أصغر الجميع ، يبتسم له ، كأنما كان كل هذا الوقت ينظر إليه منتظراً التفاتته ليبتسم .

* * *

الأصـــــداف

أصداف ومحار وهياكل القواقع الصغيرة . أشكال هندسية غريبة ذات انحناءات انسيابية . تداخل فى الألوان وانتقالات هادئة من لون إلى لون عبر ظلال وأمواج مدهشة ..

الواحد من الصبية يجد الصَدَفَة أو المحارة الكبيرة شيئاً ما ، فيهتف «لقيتها » ويجرى إلى الشاطئ يتبعه زملاؤه كطيور مفزوعة، يتسمرون حوله فجأة حين يقف محاصراً منهم ، يضع المحار على أذنه يسمع من داخلها وشيش البحر . « اسمع » ، يضعها ضاحكاً على أذن الآخر الذى يرهف السمع ويفتح عينيه على اتساعهما ، ويفتح أيضاً فمه فرحان بالصوت المسحور . إياد الصغير لا يفعل ذلك . لا ينتقل من مكانه خلف

أحد . يجلس في الماء بالقرب من الشاطئ . يكتفي أن يرفع وجهه ناحية الأطفال والصبية الأكبر ويبتسم . يعود إلى جمع الأصداف الصغيرة ، وقشور المحار ، يصعد بها إلى الشاطئ يضعها فوق الرمال الجافة ، بعد آخر نقطة ، يتصور أن الموج يصل إليها . يعود ويجلس مكانه يعاود الجمع . تتجاوزه نهايات الأمواج فيتابعها بعينيه حتى إذا انتهت قبل النقطة التي وضع فيها محاره ، ابتسم وعاد إلى العمل . ينهض من جديد مضيفاً إلى ما جمعه أصدافاً أخرى ويعود . تأتي الموجة هذه المرة أكبر وأقوى تقلبه على جانبه ، وتسقط ما في يده ثم تصعد إلى الشاطئ تغطي ما تركه هناك ، وتسحبه وتعود به إلى الماء . يكون هو قد اعتدل ووقف .

« يخرب بيت البحر » . يقول بصوت غير مسموع ، يبتسم ويجلس من جديد يجمع الأصداف والمحار ذات الألوان البديعة الباهرة التي يشف عنها الماء الخفيف عند نهاية البحر وبداية الشاطئ .

* * *

البحـر والمـوج

بالليل بعد أن يخلو الشاطئ من الناس ، ويرتفع المد يغطي نصفه ، يكاد يصل أحياناً إلى النصف الأول من الشاليهات ، يرى ناجي أعمدة نور ذري تمشي على الماء ، تبدو تتزحلق على جليد في فرح كوني رشيق . من أعمدة النور تخرج بيارق بيضاء ترفرف في الفضاء محاطة بلؤلؤ وضاء . تتعانق البيارق أمام عينيه وينظر حوله فلا يجد إلا الظلام شمل كل شيء حتى النوم !

— هل ترى ما أراه فوق الماء ؟

سأل سمير الذي كان يسهر إلى جواره أول أمس .

— أجل . إنها قوارب المراقبة الليلية . حراس الشواطئ . دوريات تجوب البحر بحثاً عن المهربين للحشيش والمتسللين أيضاً ..

سكت ناجي . لم يعلق . دخل في صمت بقية الليل .

للموج هنا لون وطعم ورائحة . للماء بعض الثقل الذي يجعله يختلف عن الماء في مرسى مطروح رغم أن البحر واحد . ذلك البحر القديم الذي يتوسط الدنيا القديمة والجديدة أيضاً . في مرسى مطروح الماء أخف والرمال أكثر بياضاً ونعومة . في العام الماضي زار مرسى مطروح لأول مرة بعد أن كان رآها كثيراً في طفولته . لم يكن يتذكر منها غير قوافل الأغنام الصغيرة والماعز وقطار المياه وخروج الناس إليه . العام الماضي أخذه إحساس مفاجئ اندهش له بشدة فهو يعرف أن الناس لا تفكر في الأوطان إلا أيام الحروب ، لا تتذكرها إلا في الخطر .. وهو دون خلق الله يشعر فجأة بأن الوطن جميل ، وأن البلاد طيبة حنون . لكنه للحظة أحس كما لو كان فيلاً يقترب موعد موته فراح يمشي صامتاً في الأدغال عائداً إلى موطنه ، مقبرته ، خيل إليه أن كل الناس الذين يقابلهم في الطريق عائدين أو ذاهبين إلى مرسى مطروح أفيال تذهب إلى موتها . وزحام السيارات على الطريق هو لإحساس الناس بأن أيامهم صارت معدودة على هذه الأرض ، لذا يريدون أن يروا كل مكان فيها بسرعة ، فهذه الأرض الشهيرة في التاريخ ، والتي تشغل أقصى الشمال الشرقي من قارة أفريقيا ، والتي طمعت فيها الدول في كل زمان ، والتي اسمها مصر ، سوف تفقد جاذبيتها . ستنعدم خاصية الجاذبية الأرضية فيها ، وسينقذف الناس إلى الفضاء العالي في سقوط لم تعرفه البشرية ، وسيمضون ما بقي لهم من أعمار في المجرات الفضائية البعيدة . نجوماً سيتحولون أو أقمار . المؤكد أنهم سينفجرون ولن ينزلوا إلى الأرض مرة أخرى ، الأرض نفسها ستنفجر خلفهم في حركات تكتونية لم تعرفها العصور الجيولوجية كلها . ستظهر جبال وبراكين ، وستمتلئ الوديان بالمعدن المصهور ، وسيصبح كل شيء عجوزاً ثباتها ...

لقد توقف ناجي ، عند مقابر الحلفاء في العلمين . لعل اقترابه من المقابر هو سبب رؤيته الانفجارية هذه . هنا يرقد جنود الغرب والشرق معاً . اليونانيون والانجليز والاستراليون والفرنسيون والهنود والنيوزيلنديون والإيطاليون ، والألمان . كل هذه الدنيا اجتمعت في الشريط الضيق بين شاطئ العلمين ومنخفض القطارة . صحراواتنا كلها حروب فُرضت علينا . قال لنفسه ذلك وأدرك وهو يقف أمام المقابر الانجليزية أنه يبلغ نفس العمر الذى بلغه أبوه حين وقف على محطة سكة حديد العلمين قبل وخلال المعركة الرهيبة . الاسكتلنديون التعساء ، خاضوا المعركة يعزفون نافخين على قربهم وسط الدمار والنار والغبار والليل . فجرتهم ألغام ومدافع وطائرات ودبابات روميل ، ومونتوجمرى لم يكن يتأخر في نومه عن العاشرة ..

هل سيكتب ناجي عن ذلك يوماً ؟. ما جاء به إلى هنا ليس حب الوطن كما سبق وأحس ، ولا هو بالفيل الباحث عن مكان لينام النوم الأخير . فقط هو رغبة دفينة أن يقف مكان أبيه ولو لحظات قليلة . ترى كيف كان يشعر أبوه أثناء القتال ؟ .. هل يستطيع أن يمسك بشعور أبيه القديم وبين الوقتين الآن نصف قرن ؟ لقد تركه أبوه وانسحب من الدنيا منذ عشرين سنة ، بعد ثلاثين سنة من وقوفه هنا ليحمل له الحكايات العجيبة عن موت الغرباء . كان أبوه يضحك أحياناً وهو يقول له «ما زلت أسمع صوت موسيقى القِرَب الاسكتلندية .. أى والله » ، لكنه كثيراً ما رآه يمسح دمعة صغيرة تترقرق فى عينه تكاد تسقط ويسمعه يقول « لقد مات دميان بين يدى » وهمس له فى ضعف وهو يبتعد عن الدنيا « أمي تشير إلىّ طول الليل . ودميان أيضاً ينادينى » . أى صحبة كانت بين الأب ودميان هذا ؟ .. لكن الأب لم ير سيناء . لم يحك لناجي قصة واحدة عنها . ناجي يعرفها جيداً . عرف حكاياتها بنفسه . ولا يزال يقاوم الرغبة فى العذاب الرهيف .. يطلب من جاره أن يفتح النافذة ليدخل الهواء النقى . الهواء

القادم من البحر الجميل الذى له مياه ثقيلة هنا ، ومياه خفيفة هناك ، رغم أن الموجة التى تتكسر هنا ربما كانت هى التى تكسرت من قبل فى مرسى مطروح ، وربما تكون تكسرت أمامه هو العام الماضى فى شاطئ الأبيّض أو كليوباترا أو روميل . كيف يمكن أن يتأكد من ذلك حقاً ؟. أى مجنون هو ؟. وهل حقاً عاشت خطط روميل ليطبقها موشى ديان عام ١٩٦٧ ؟. لقد كان موجوداً فى المعركة ولم يكن هناك أحد يحارب أحداً فلماذا الحديث عن روميل دائماً فى الصحراء ؟. قالوا أيضاً إن شوارسكوف قرأ روميل قبل يناير الماضى ، ولم تكن هناك حرب برية على الاطلاق ، كان هناك جنود يستسلمون بالآلاف ، وجنود تحصدهم الطائرات والدبابات بالآلاف أيضاً . تعب الجنود من حرب طويلة ، تعب الجنود من حروب بلا طائل . تعب الجنود من الخطط الأمريكية لاستدراجهم كل حين إلى مصايد القتل المجاني . لماذا لم يفهم أحد أبداً من الساسة معنى تعب الجنود ؟..

الماء واحد والأرض تختلف . فى مرسى مطروح رأى ناجي الرمل تحت قدميه تحت الماء ، وهنا رأى الأصداف الجميلة الملونة . فى البلدين حمله الموج ناعماً بالنهار ، وبالليل حمل له أولياء الله يجرون نوراً كاملاً رافعين البيارق المضيئة . أجل . ما يراه من نور سارح أولياء الله ولا أقل . إلى أين أنتم ذاهبون أيها الأقطاب وأنتم توغلون فى الظلمة المجهولة ؟. هل ستعودون فى الصباح ولو مرة ؟. فى الصباح تقذف الأمواج بقناديل البحر . دائماً قناديل البحر . ربما تبدأ فى ذلك بعد أن ينتصف الليل . فى الصباح تكون قد قذفت بأعداد كبيرة رخوة مطواعة بلا حيلة ، ولا معنى لكل هذا الفزع الذى تسببه للمصطافين .

* * *

القنــاديــل

الأطفال فزع وبهجة . الكبار يتراجعون بحيث لا يبدو أن ثمة خوف من شيء ، لكنهم حريصون أن يكونوا بعيدين بدرجة كافية عن القنديل ، ومفاجآت الموجة القادمة التي ستحمله من مكانه بعد قليل . الأطفال يقفزون فوق الموج . يتزاحمون في دائرة ما تلبث أن تتبعج كلما تحرك القنديل . الأطفال أيضاً مستعدون للتراجع لكنهم والدهشة تطل من عيونهم ، لا يبدو عليهم أنهم سيتراجعون لو اقترب القنديل منهم .

جرى النهار في الفضاء وعلى الأرض منذ ساعات ، ولم نكن وصلنا للظهيرة بعد ، ولون القنديل تحت الماء سماوي ، أزرق فاتح ، رائع بحق وخاطف للعين . والقنديل ذو الحجم الصغير ، حتى الآن ، معلق بين السطح وقاع البحر ، إلى السطح أقرب ، ولونه البهيج سيتغير بعد قليل حين يخرجه الأطفال ، سيصبح أبيض شمعياً جيلاتينياً مطفأ .

الدائرة حول القنديل تتسع . دخل معه قنديل آخر . اثنان . ثلاثة . اثنان فقط . الثالث كيس من البلاستيك . ها . ها . ها . هات العصا . أجر ، أخرج هات الشبكة . كل واحد يشوف له عصا أحسن . لا أحد يمسك القنديل بيده . سيحرقه .

— لا يا كابتن . ممكن جداً أن تمسكه بيدك .

زياد يقول ذلك لواحد من المتجمعين حول القنديل .

— لكنه سام .

— أعرف . المهم أن تحمله من ظهره فلا يطولك سُمّه . الحقيقة هو ليس ساماً ، هو يفرز مادة حارقة .

تابع ناجي الحوار بين زياد وبين جواد زوج خديجة ، ثم تابع زياد وهو يتقدم ناحية القنديل . أحس به يمشي على أظافره .

— زيــاد .

هتف ناجي .

— لا تخف يا بابا .

الموج يصير هادئاً فجأة كأنما يترقب هو أيضاً . خفَّ صوته والدنيا كلها خفَّت جلبتها . الماء ارتفع قليلاً والجميع أحسوا به دافئاً على غير العادة في هذا الوقت من كل يوم . كل شيء يبدو في حالة انتظار . هكذا خيل لناجي وهو يتتبع زياد بعينيه ويراه يميل إلى الخلف ليمر القنديل الذي يحمله الموج من أمامه دون أن يلمسه . ارتفع زياد وهو يمد قامته فصار أرفع وأطول وهو يتراجع بحكمة ليمر القنديل الذي اختفى بانتهاء الموجة ثم .. ها هو . ها هو . ترتفع الصيحات ويد زياد الممدودة في الماء تنزل أكثر ، فجأة ، قبل أن تأتي موجة ثانية ، هوب ، ترتفع اليد حاملة القنديل إلى أعلى مقلوباً على ظهره .

لقد لمس زياد ظهر القنديل ومال به وحمله في حركة واحدة سريعة لم يخدعه فيها انكسار الضوء ، واختلاف موقع القنديل الحقيقي في الماء عن ما يبدو لهم . هل تدرب الولد على ذلك من قبل ؟ كيف لم يعرف ناجي ذلك عنه ؟ لقد صرخ الولد رافعاً ذراعه إلى أقصى مدى ، وخرج حاملاً القنديل على يده ، وخلفه رتل من الأطفال والصبية يهتفون . القنديل . القنديل . القنديل ...

تحمس جواد زوج خديجة وقال لابنه أن يخرج يحفر مقبرة للقناديل التي سيصطادونها اليوم . الأطفال جميعاً انهمكوا في حفر مقبرة كبيرة بقوة وهمة وشراسة . كانت النساء ذلك الوقت قريبة من الرجال . رآهن ناجي وفكر أنه لم يبق إلا أن يربطوهن معهم بالحبل .

لم تكن المرأة التي حدثته عنها نور الصباح قد ظهرت بعد فهي تأتي عادة بعد الظهر ، ولم يكن زوجها موجوداً أيضاً ، فهو لا يأتي إلا معها

ليقف خلفها ، أو أمامها ، فى الماء ، جاعلاً من نفسه مقياساً للحياة أو الموت ، فلا تتجاوزه .

هذه أول مرة يرى فيها ناجي قناديل البحر ، هو الذى عاش فى الاسكندرية وطالما سمع عنها . لكنه رآها أكثر من مرة في برنامج تليفزيوني . كائنات رخوة هلامية . يعرف ذلك . ويعرف أن مجلس المدينة هنا يُخرج دوريات من الصيادين محملين بالحراب لتمزيق القناديل قبل وصولها إلى الشاطئ . لكن لا يبدو أن القناديل التى يصطادها الأطفال بكثرة ، وشجاعة الآن ، وبأيديهم ، مطعونة بالحراب . لقد ضربها شيء آخر . علّه الموج نفسه فالكثير منها يأتى سليم البنيان .

* * *

الفتاة الفلسطينية

موجة حملته وألقت به قريباً من الشاطئ . لم يكن وحده . الموجة العظيمة الطاغية جعلته يتقلب تحت الماء أكثر من مرة ، ثم يتمدد على الرمل الخشن والأصداف ، ذراعه مفرودة إلى نهايتها حتى كاد كتفه ينخلع ... نهض ، فوجد نفسه يدور بعينيه يبحث عن « نور الصباح » التى كانت يدها فى يده قبل الموجة . رآها قرب الشاطئ تسعل بقوة وتتجه إلى الخروج . لم تفطن إليه . لم تبحث عنه ولم تنظر إلى الماء . أفقدتها الموجة بعض الوعى إذن .

لمح إياد يجمع الأصداف متوحداً ووحيداً معها قرب الشاطئ ، وائل مع عدد من الأطفال يدفنون قنديلاً ، زيد يوغل فى السباحة فى الماء ، والفتاة الفلسطينية تقترب ضاحكة حيث جلست نور الصباح تحت الشمسية . انقضى النهار كله فى صيد القناديل لذلك غضب البحر واستمرت غضبته .

وقفت الفتاة الفلسطينية في نفس الجلباب الأسود . أحس ناجي بنفس الضوء الناعم ينبعث من وجهها وذراعيها وربلتي ساقيها . كان شعرها محلولاً خلف ظهرها ، أسود كثيفاً كالعادة . الليل يوشك على الدخول . الأفق خلف الجميع أحمر ، وأمامه رءوس النخيل تسبح في نار نادرة . هبت نسمة باردة مفاجئة فسأله سمير .

— هل تظنها لا تزال تبحث عن أصدقائها ؟

— لا بد ، تبدو حائرة كما هي في كل مرة .

ابتعد عن سمير سابحاً نحو جواد الذى لا يزال يحاصر القناديل القادمة مع الأطفال . النسمة الباردة تشيع في الفضاء مرة أخرى ، وجه الفتاة الفلسطينية يحمله عبر آلاف الأميال إلى الشمال البعيد حيث تهتز دائماً في الفضاء نسمة باردة .. يمشى الآن على شاطئ نهر دجلة في المساء في الموصل يرى القلاع القديمة ، التى تعطى المكان رائحة مقدسة ، ويأخذه البرد إلى الإحساس المدهش بطعم الاسكندرية . ذلك البرد المحتمل الجميل المنعش لخلايا الروح باعث الدم في الشرايين ! يزداد إحساسه بالاسكندرية وهو يمشى فى سوق الموصل ، بدا له شيئاً قريباً من أسواق العطارين الشعبية ، وكان مدهشاً أن يجد رواية « اعترافات فتى العصر » لألفريد دى موسيه التى ترجمها فيلكس فارس في الاسكندرية منذ نصف قرن . لحظة عجيبة شملته فيها مشاعر مختلفة من الدهشة والراحة والفرح وهو يقف يشترى الرواية من مكتبة النمرود بشارع الخافجي . لكنه فكر هل الدهشة والفرح إحساسان شماليان يشملان كل الناس فى الشمال دائماً ؟ ...

الشمال شمال . موسكو لأول مرة . موسكو بعد عشرين سنة من الحلم . فتح باب المطار المفضى إلى الخارج ورأى العاصفة تطير الثلج في الفضاء خطوطاً متقطعة ومتوازية فأغلق الباب . ابتسم لصديقه وقال

«لا بد أن نخرج» ، لم يكد يستقر فى الفندق ، وبعد أول لقاء مع عدد من المستشرقين فى اتحاد الكتاب « الذى رأى فى وسط باحته التمثال النحيل لتولوستوى يغطيه الجليد » حتى أعلنوه بالذهاب غداً إلى « كييف » ثم يعود إلى موسكو يراها على مهل .

« كييف » أقل برودة بدرجتين أو ثلاث .. لا يزال فى الشمال إذن . وطوال رحلة القطار بالليل ، ظل ساهراً ينظر من خلف النافذة إلى الجليد الذى يغطى الدنيا . إلى ذلك الليل الأبيض الباهر . ليالى دستويفسكى البيضاء .

بالليل ، فى « كييف » نزل تاركاً فندق الدنيبر الجميل القائم على النهر الذى يحمل اسمه . النهر الذى دارت حوله معارك كبيرة فى الحرب الثانية . مشى قليلاً يشرب هواء الشمال بخلايا جسده . يريد أن يعيد رحلة النهار بين شوارع كييف المنحدرة دائماً ، الصاعدة دائماً ، بين التلال .

قرب الفندق مباشرة ، وكأنما فى انتظاره ، كانتا تجلسان فى صمت تدخنان .. الله خلق نساء الاتحاد السوفييتى واحدة واحدة ثم ترك مهمة خلق نساء العالم إلى مساعديه من الناس الذين هم أقل قدرة . جمال النساء فى جمهوريات الاتحاد السوفييتى الشرقية والغربية يوحد بينها أكثر ما توحد الأيديولوجية .

لا يعرف من اللغة الروسية غير خمس كلمات . لا يعـرف الأوكرانية . لا تعرفان الانجليزية ولا العربية بالطبع . قالتا « الاسبانيولية » فصار سهلاً عليه التحدث بالخمس كلمات التى يعرفها من الروسية .

افسحتا له مكاناً جوارهما .. أشار هو إلى الفندق القريب . أشارتا بالرفض . قال «مارتينى»!؟ التمعت عيونهما الزرقاء . صعد وحده إلى الفندق وعاد بزجاجة المارتينى . رسم على علبة السجائر المارلبورو

صورة لبيت فقالت « ذات الوجه البرىء » « بابا .. ماما » وقالت للأخرى وهى تشير إلى الرسم « دوم » .... كلمة « بيت » أسهل كلمة فى العالم . قال فى نفسه . تماماً مثل كلمة « لا » ..

أخذتهما الأخرى « ذات الوجه الجرىء » إلى تل يذوب الجليد عن بعض سفحه فيكشف مساحات من الخضرة . صعدوا درجات التل . خمائل من أشجار الكستناء السامقة المحترقة الأوراق بفعل البرد ، سوداء الجذوع بفعل البرد أيضاً ، تحتها مقاعد خشبية يغطيها الجليد . أربعة مقاعد على واحد منها يجلس عاشق أوكرايينى طويل وطويل الشعر ، خلع الشبكة من فوق رأسه ، وأدخل فى صدره فتاة صغيرة وأحاطها بذراعيه .

على المقعد الأبعد جلسوا بعد أن كسّروا الجليد بأحذيتهم . تركهما تشربان المارتينى وانشغل هو بشربهما واحدة بعد الأخرى فى جنون وعلى مهل ..

من أوكرانيا هذه التى يجلس على تل من تلال عاصمتها الجميلة وسط الليل تبدأ طيور السمان مع نهاية الصيف القصير ، ومع نذر الخريف البارد ، تقطع رحلة طويلة ، إلى أفريقيا الحارة . وأول ما ترتاح قوافل السمان يكون على الشواطئ الأفريقية ، فى مصر . فى المنطقة الممتدة من العريش إلى مرسى مطروح حيث ينتظرها خريف أكثر دفئاً ، وموت محقق معلق فى شباك الصيادين على الشواطئ .. ها هو فى كييف يسقط فى أحضان السمان ، الذى لم يذهب بعد إلى السواحل الأفريقية !!

أراد أن يقول للفتاتين شيئاً عن رحلة السمان هذه فلم تسعفه الكلمات القليلة التى يعرفها ، لم يكن ممكناً رسم ذلك ، كان معه قلم لكنه يحتاج إلى أوراق كثيرة ليرسم السمان ويرسم أوكرانيا ويرسم الطريق ويرسم أفريقيا وسواحلها ويرسم النقر والحر والموت . يا للسمان المسكين . ليس أعمى يسقط فى الشباك التى لا يراها كما يقولون ، إنما هو متعب يرتمى

عليها ليرتاح فتقتله . هنا في العريش يعمل عدد كبير من الناس بصيد السمان .

رأى عيني « ذات الوجه البريء » مثل عيني « أودري هيبورن » في اتساعهما وعمقهما ، وعيني الأخرى ، « ذات الوجه الجريء » مثل عيني « آفا جاردنر » صاحبة الدعوة المفتوحة للفجور . ضحكتا وهو يخبرهما بذلك وهتفت الثانية « أميركا . أميركا » وبدت تحلم ..

انتصف الليل وازدادت كلماته التي يعرفها من الروسية إلى عشر ، العاشق الأوكرايينى لا يكف عن القيام والتوجه نحوه بين وقت وآخر طالباً سيجارة مارلبورو مما اضطره في النهاية إلى إعطائه علبة سجائر كاملة . قاموا لتلحق الفتاتان بالترولي الأخير في كييف النائمة .

طلب أن تقابلاه غداً في الساعة الثانية ظهراً ، إذ سيسافر في المساء عائداً إلى موسكو ، وعدتاه بالحضور ، وأكثر بالصعود إلى الحجرة . في الساعة المرتقبة ، دق جرس التليفون « هاللو .. هاللو » لا صوت . انتظر دقائق . نصف ساعة . ساعة . لم يأت أحد . نزل إلى بهو الاستقبال . سأل موظفي الاستقبال . لم يسأل عنه أحد ، ابتسم وهو يحزم حقائبه ليعود إلى موسكو . كيف صدقهما حقاً ؟ ولماذا تأتيان إليه ؟ أي شرقي ساذج هو !؟ هل لأنه عاش يحب الاتحاد السوفييتي سيحبه مواطنو الاتحاد السوفييتي ؟

* * *

قال له ايجور ، الشاب الذي تعرف عليه في قطار الليل العائد إلى موسكو ، إن التل الذي صعده مع الفتاتين ، فوقه قصر ثقافة اسمه قصر اكتوبر ، وإنهم في أوكرانيا سيزيلون كل ما له علاقة بأكتوبر ولينين والثورة البلشفية . أوكرانيا غنية ولا يمكن أن تظل منهوبة إلى هذا الحد ..

كان ايجور حاسماً وعاصفاً ، هز كتفيه ومط شفتيه وناجي يحدثه عن حاجة العالم الثالث إلى الاتحاد السوفييتي ، كان يتحدث الانجليزية بشكل معقول ، وسأل ناجي ما إذا كان يحب أن يزور عرّافة مشهورة في موسكو !؟

* * *

ترك ناجي إيجور قبل الفجر وجلس وحده في طرقة العربة يتفرج على الليالي البيضاء . لا يزال يريد الامساك بالإحساس الشمالي . ذلك الاحساس الذي غزاه مرة وهو في الموصل ، ويغزوه منذ وصل إلى هنا ويبدو أنه لن يشبع منه. ما أجمل هذا الإحساس عندما يكون الإنسان في الجنوب في نفس اللحظة التي يكون فيها في الشمال ، لكن هذه قدرة لم يعطها الله لأحد بعد ..

ضايقه للغاية هواء التكييف الدافئ بالقطار . انتقل إلى عربة التدخين المهجورة التي بلا تكييف ، لكن رائحة السجائر الروسية التي تنبعث من المكان ، كرائحة الخيش المحروق ، كان من الصعب احتمالها ، فعاد ونام الساعات القليلة الباقية ..

* * *

أرابيسك

حكاية :

خرجت « جارية » من عند الرشيد ومعها مروحة مكتوب عليها « الحِرّ إلى إيرين أحوج من الاير إلى حرين » . منذ ذلك الوقت والرجال يحاولون أن يكونوا دائماً حاملي إيور عديدة .

دعـــاء :

قال رجل من أهل المدينة « اللهم ارزقني إيراً سداه عصب ولحمته قصب ولا يصيبه تعب ولا نصب » .

نصيحة :

قال ابن سيرين : « ألذ الجماع أفحشه » .

وقال الأحنف : « إن أردتم الحظوة عند النساء فأفحشوا الجماع وأحسنوا الخلق » .

نوادر :

قال أحدهم ينعي حاله : « يمتد ولا يشتد وإذا أكرهته يرتد » .

وقال شاعر فأجاد :

ينام على كف الفتـــاة وتـــارة   له حركات ما يحس بها الكف
كما يرفع الفرخ ابن يومين رأسه   إلى والديه ثم يدركه الضعف

* * *

وصفة من كتاب أحمد بن سلمان الشهير بابن كمال باشا رحمه الله :

« بروق أرمني وسنبل من كل واحد مثقالان تُجفف وتُسحق ثم يُصب على المسحوق لبن حليب وعسل ويُمرس عليه جيداً حتى يختلط ثم يطلى به أو يُدلك دلكاً قوياً حتى يحمر ، ومثقال من جورب الآر والفلفل وعاقر قرحا وزنجبيل وسنبل ومسك وخولنجان ويسحق كل على حدة ثم يُجمع ويُحل بالعسل الذى رُبي فيه الزنجبيل وشقاقل ويُمسح به عليه ، ومثقال من بذر الأريانج المحمص وزنجبيل وعاقر قرحا ودارصيني ونصف مثقال من الحلتيت وسكفيينج ومسك وكافور ومثقال ونصف من كل من جوز بوافر دمنا وطكر وطبر ودمن وكلها تُسحق وتُخلط بماء القاذورج

المرطب حتى يصير فى قوام الطلاء ويُرفع في إناء زجاج ويُسد عشرة أيام ويخضخض كل يوم ثلاث مرات بعد ذلك يُمسح منه الذكر ويصير عليه حتى يجف ويُجامع بعدها حتى ينحل من الجماع ولا يُترك الإناء مفتوحاً لئلا يُذهب الهواء قوة الدواء ، ومن استعمل ذلك لم تصبر عليه امرأة في الدنيا إذ يغشى عليها من شدة اللذة وهو بإذن الله عجيب .

* * *

حـكاية :

يحكى أن مُخنثاً رأى إيراً كبيراً لرجل كثيف الشعر فأخذ يبكى ويقول : « انظروا الخليفة فى القطيفة » .

* * *

الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا ..

* * *

الطـــريق

بسرعة يخرجون من الشارع البغيض ... لماذا حقاً بدا له الشارع بغيضاً ؟ .. الشارع صغير ، محلاته مفتوحة على الجانبين ، أمامه خُضر وفاكهة موضوعة كيفما اتفق ومعظمها فاسد من الحر والاهمال . تتصدر الشارع مقهى أمامها نرجيلات قديمة سوداء ، خلفها رجال كالحو الثياب ، مهوشو اللحى ، بينهم عدد غير قليل من البدو فى ثياب بيضاء ، وعلى رءوسهم غتر قديمة وعقالات حال لونها .

لقد دخل الميكروباص الشارع منذ قليل وعلى مهل ، ولمعت على جانبي المحلات من الداخل المعلبات العديدة الملونة . لحظات وانتهى

الشارع بسرعة فهو قصير ، وانقسمت الدنيا والكون عاد باهر الضوء والهواء راح يجرى إلى الوجوه عابراً النوافذ المفتوحة فى فرح . توقف السائق وهتف مسئول الرحلة « هيا يا اخوان ، هنا الصخرة الإسرائيلية وشاطئ الشيخ زويد » .

نزلوا فقابلهم الهواء المبلول برذاذ البحر ولا بد أن الجميع انتعشوا . لاحظ ناجى لافتة على الشاطئ تعلن أن الشاطئ خاص لأعضاء نادى الشمس بالقاهرة ... ياه . القاهرة التى كانت تراجعت كثيراً من الذاكرة . لماذا جاء بهم مسئول الرحلة ليروا هذا الجمال الالهى يحيطه أعضاء نادى الشمس بالأنانية ؟ . إذن لن يُسمح لهم بالدخول .. هذه الشواطىء الخاصة الغبية التى انتشرت فى كل سواحل مصر .. حرمت ثورة يوليو الباشوات من هذه الشواطئ وأعطتها للجيش والبوليس . بعد موت عبد الناصر أعطى السادات الباشوات الجدد شواطئ جديدة ولم يتخلَّ الجيش والبوليس عن شواطئه ومناطق نفوذه . لم يبق للشعب شىء .

يا الله .. يتنفس ناجى الذى لم يتصور قط أنه هنا على بعد عشرات الأميال من القاهرة يأتى إنسان ويضع حاجزاً على شاطئ ربانى ويقول هذا ملكى . لا تزال أرض الله رحبة على أى حال . عليهم بالصعود إلى الربوة التى فوقها الصخرة الإسرائيلية . ليس هناك أى شىء يفعلونه غير هذا ، وهذا هو المكان الوحيد المباح .

— ما حكاية الصخرة هذه ؟ .

سأل ناجى حارس الشاطئ البدوى فقال :

— صخرة أحضرها اليهود من النقب وتركوها هنا ، عليها أسماء طيارين سقطوا فى البحر . سبعة طيارين .

— لا شىء غير ذلك ؟ .

— ماذا تظن سيكون ؟

أجاب البدوى مبتسماً . وتذكر ناجى أنه فى معاهدة كامب ديفيد ، أو فى ملاحقها ، نص على حق إسرائيل فى إقامة بعض النصب تخليداً لقتلاها على أرض سيناء . هز كتفه وظل فى مكانه لم يصعد . رأى الجميع أعلى الربوة يلتقطون صوراً بحيث تكون الصخرة خلفية لهم مرة ، ويكون البحر والأفق خلفية أكثر من مرة .

هل سقط هؤلاء الطيارون السبعة أيام حرب الاستنزاف أم أثناء حرب أكتوبر ؟ لم يستطع التحديد ، لم يشعر بضيق من أى نوع على خيانة الذاكرة . ابتسم فى لا مبالاة... مجرد نُصب فى مكان شبه مهجور معظم العام . راح يعب من هواء البحر ويملأ عينيه بالأفق العريض .

قال له الرجل البدوى الذى رآه لا يزال يقف إلى جواره ولم يصعد مع بقية أعضاء الرحلة :

— هم يأتون لزيارة موتاهم ، ونحن نأتى لنتذكر أننا أسقطناهم بالصواريخ . خالصين ..

ضحك البدوى بعد أن أتم كلامه فلمعت أسنانه الذهبية تحت الشمس ، بدا سعيداً بتفسيره .

انشغل ناجى بالنظر إلى عينى نور الصباح السوداوين وهما تلمعان فى الفضاء الواسع ، وهى تنزل قبل غيرها من فوق الربوة . رأى شعرها غير المدرج يعطيها صبغة غجرية . بدت له صحراوية الوجه بتأثير البحر والشمس . اقتربت منه فوضع ذراعه حول كتفيها وشدها إلى جانبه ومشى هادئاً صامتاً . كانت هى أيضاً صامتة تكاد تغمض عينيها .

من زمان لم يفعل ذلك ، ها هو يشعر بدقات قلبها ودقات قلبه . كم هى على حق المرأة التى جاءت مع زوجها منذ عامين فلم يعودا للقاهرة . كم هو محتاج إلى خلاء يبعث الروح من خلائها .

وأدرك أنه لم ير القمر فوق القاهرة مرة منذ ترك الاسكندرية . لم يرفع وجهه إلى السماء فى القاهرة قط . ربما رأى القمر مرة من فوق المقطم . رأى القاهرة تسبح فى غلالة من التراب تخفى معالمها وهو يقف فوقها فرفع ، تلقائياً ، رأسه إلى أعلى ليرى القمر الجميل .

— هل نظرت إلى النقوش على الصخرة ؟

— لم أفهم شيئاً طبعاً ، منظر البحر من أعلى جميل جداً ..

لقد عاد زياد منذ لحظات وسأله ناجى فأجاب .. كان السائق يطلق النفير فراحوا يصعدون إلى الميكروباص . جلس هو للمرة الثانية جوار نفس الرجل الذى بدا بدوره مهتماً أن يجلس جواره .

ما كاد الميكروباص يخرج من الشارع حتى تساءل ناجى لماذا حقاً بدا له الشارع بغيضاً ؟ لماذا ينقبض صدره ؟ . ترك عينيه تجريان على جانبى الشارع فرأى الرجال مسترخين كما هم بالمقهى القديم ، والبضائع كما هى مفروشة فى فوضى أمام الدكاكين ، والخضر والفاكهة يطل منها العطن . كل شىء يبدو منسياً هنا . الشارع كله يبدو من بقايا العصور الوسطى أو تكنة قديمة لآلهة النسيان ..

* * *

ينظر ناجى إلى الأشجار على الجانبين بعد أن خرجوا من الشارع القديم ودخلوا فى الطريق الضيق . أشجار ليمون وخوخ ، باسقة زاهية الخضرة ، خلفها أرض منظومة للعنب والتين والزيتون واللوز العتيق . على البعد تتشابه أشجار الزيتون واللوز . طوال الطريق أطفال يقفون خلف أقفاص ملأى بالخيار الطازج والبطيخ . كيف لم ير ذلك وهم قادمون إلى الشاطئ منذ قليل ؟ . ويضطر السائق إلى تهدئة سرعته كثيراً حتى يكاد يقف . إنه يفسح الطريق لرتل من الأتوبيسات السياحية تقل سياحاً من إسرائيل فى طريقهم إلى الصخرة .

تعود الأرض الصفراء إلى الظهور . حيث تظهر الأرض الصفراء يرتفع فى الروح الاحساس بالوحشة . الصحراء لغز وتيه . هل يتذكر ؟ لقد ورث حب الصحراء منذ طفولته ، لكنه حين جاء إلى أبعد نقطة هنا جيىء به محمولاً على وجه السرعة . لم يبق إلا ليال معدودة ، واستغرق فراره الليلى خمسة وعشرين يوماً قطع به الأعراب فيها دروباً لا يعرفها غيرهم . أعطاهم سلاحه فأعطوه حياته . نفس القصة المؤلمة التى سمعها وهو صغير فى العاشرة إبان العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ عاشها وهو فى العشرين عام ١٩٦٧ . فى السابعة والعشرين من عمره اختلف الأمر . عاد إلى الصحراء فتياً يريد قطع كل مسالكها لكن السياسة قيدته إلى أرض ضيقة . بضع كيلو مترات خلف القناة . ذلك تاريخ صار منسياً الآن وهو لا يريد أن يتذكر . خرج من الحرب راضياً عن نفسه وليس أعظم من شعور المحارب بالرضا والفخر . إذا كان الساسة قد تخاذلوا وخذلوه فكل حبة رمل داس عليها فى سيناء تعرف أنه برىء من الخذلان ، وتظل الصحراء غير جميلة أبداً . وما قاله شعراؤنا القدامى لم يكن أكثر من يأس مقنّع ، وفى أحسن تقدير نوع من الرضا بالحال . إلى أين حقاً كان يمكنهم الذهاب ؟ . لذلك عبروا البوادى عندما اتسعت البلاد بعد الفتوح الإسلامية . اكتفوا بالدروس اللغوية من بدوها لشهور أو سنوات ، وتسمية بناتهم ، بعد ذلك ، وفى أحسن الأحوال ، ببادية . بادية اسم منتشر كثيراً بين بنات العراق . أجمل أسماء البنات تجدها فى العراق . بادية وسلمى وبلقيس وشذى . العراق كله صار بادية متروكة لآلهة الريح تسفو عليها الرمال . صحراء سيناء من بين كل صحراوات العالم لها شأن كبير فى هذه الدنيا . تقول الدراسات الحديثة إن الشعب اليهودى لم يعبر سيناء . لم يهبط فى الأصل إلى مصر ومن ثم لم يخرج منها . إن اليهود كانوا يعيشون فى مستعمرة مصرية حقاً ، مصرايم ، لكن مكانها جنوب الجزيرة العربية ، بين السعودية واليمن .

هل تستطيع هذه الدراسات التي تبدو مقنعة جداً أن تمحو مئات السنين من الاعتقاد الديني بالخروج ؟ بعصا موسى التي شقت البحر الأحمر ؟ بموسى الذي ذهب يناجي ربه من فوق الجبل وعاد ليجد شعبه يعبد الأوثان خلف السامري الشهير لتحل بهم اللعنة فيتيهوا أربعين سنة مات خلالها موسى ليقودهم تلميذه يوشع ويدق بهم أبواب فلسطين . يا الله . فلسطين دائماً . الطريق إلى فلسطين يبدأ من هنا . أمام هذه الأرض ، وبامتدادها على الساحل ، وفي نفس البحر الذي يهب عليهم منه الهواء كانت السفن الفرعونية تحمل خشب الأرز من فينيقيا . ومن هذا الطريق خرج الاسكندر إلى العراق ، والرومان كثيراً إلى الشام ،وعلى الشاطئ الضيق الذي يفصل بحيرة البردويل عن البحر المتوسط حيث يقع جبل كاسيوس قُتِل بومبي غدراً بيد رجال بطليموس الثاني أخي كليوباترا السابعة أشهر حكام مصر . في نفس المكان بنى هادريان وهو عائد من سوريا معبداً لزيوس تخليداً لذكرى بومبي المغدور في حربه مع قيصر ، إلا أن كل الآثار ضاعت الآن ولم يبق إلا القصص . قصة العودة المريعة للجنود عام ١٩٦٧ تؤلمه ، وقصة العودة إلى الطريق بعد مفاوضات كامب ديفيد تؤلمه ، لأنها لم تتم بالسرعة التي تركوا بها الطريق أول مرة !

« لكننا ابتعدنا كثيراً عن فلسطين ونحتاج إلى أجنحة جبريل » . يفكر ناجي فجأة . يقول لنفسه إن الفتاة الفلسطينية التي جاءت إلى العريش يمكن أن تعود فالطريق مفتوح للجميع ! . والطريق الآن يمشي بين خضرة توشك تغطي الصحراء كلها . خضرة صنعتها الطبيعة والمطر . الطريق مرفوع عن الأرض لأكثر من مترين . ويتسع الآن . إنه جديد تم إنشاؤه بعد السيل الأخير الذي أهلك خلقاً كثيرة وسيارات كثيرة ومزروعات أكثر ، وأعطب الطريق القديم الممتد واضحاً جوار وأسفل الطريق الجديد . انه يبدو خرباً ، خلعت السيول أسفلته ، وملأته بالحفر .

الطريق الجديد تسنده من الجانبين الأحجار البيضاء المبنية في شكل منحدر يمنع انسحاب الرمال من تحت الأسفلت فلا يسوخ تحت عجلات السيارات ...

كل الطرق القديمة في سيناء لم تعد تصلح . طال الزمن وتشابكت الحروب وضعضعتها السيول . السائق الفرحان يزيد من سرعته فاتحاً فمه وصدره للهواء وتظهر إيلات للمرة الثانية .

إيلات .. إيلات .. ترتفع الأصوات من جديد . رأوها منذ ساعة وهم قادمون إلى الشيخ زويد . الآن يرونها وهم عائدون إلى العريش .

لم يسبق لأحد منهم أن رأى خرائب تاريخية إلا في الأفلام . بومباي التي مادت بها الأرض وهاج عليها بركان فيزوف . أطلانتيس التي ابتلعها المحيط . لكنهم سمعوا قصص سدوم وعمورة وبلاد كثيرة هالكة ، ورأوا أفلاماً كثيرة عن المدن الروسية التي خربها الجيش الهتلري تخريباً غير مسبوق في التاريخ تفوق فيه على اتيلا ملك الهون وجيوشه وجنكيز خان ملك التتار . ويرون الآن قطعاً ضخمة من الخرسانة . جدران شبه كامنة ساقطة متماسكة فوق الأرض . يبدو لهم ، حقيقة ، أن الإسرائيليين خربوا مستعمرتهم بأيديهم وليس بالبلدوزورات أو المتفجرات . يبدو لهم أنهم اندفعوا بأيديهم ، بكل قوة الحنق ، نحو الجدران فانصاعت لهم وتداعت . يا الله . أي غيظ يحتاجه الإنسان لتترك فيه القوة التي تسقط جداراً بهذا الحجم ؟ جدراناً يبدو من تراكمها أنها بقايا مدينة كامنة وليس مجرد مستعمرة كانوا يعرفون ، أو لديهم يقين خفي بذلك على الأقل ، أنها لن تدوم .

لماذا حقاً لم يتوسعوا في بناء المستعمرة رغم الخلاء المجاني حولها ؟ . سر هذا في اليقين الخفي بالزوال . حين طفا هذا اليقين

على السطح وصار حقيقة أصبح من الصعب التصديق ، فكان الغيظ الكافي لاسقاط الجدران بالكلمات !

لكن ناجي ينبهر بضوء الشمس الأبيض الذى يكاد يغسل الكون ويجعله شديد الطهارة . الأكوام الشائهة لحجارة إيلات تكاد تكون نقطة فى بحر الرمال والخضرة ويمكن جداً أن لا يلحظها المسافر ، ربما لو ترك الإسرائيليون إيلات كان خربها المصريون . يفكر ناجي فجأة . هذه مستعمرة محكوم عليها بالهدم الأبدى ، لذلك فشل مشروع إحدى الصحف لإعادة بنائها بعد أن تسلمت الإدارة المصرية الجزء الأخير من سيناء . فشل المشروع رغم إرتكازه على التحدى للشخصية الإسرائيلية التي بثت دعاية كبيرة حول إيلات كمستعمرة يفخر بها من بناها . لابد أن المصريين فكروا فى عبث التحدى . أرض الله واسعة فما معنى بناء مكان هدمه من شيده ؟ فليظل مخرباً . دليلاً على شخصية من بناه .

حول إيلات المخربة أشجار من اللوز والنخيل والزيتون ، على الأرض أشواك وصبّار وشيح ، ولا يبدو أن أحداً يقترب من المكان أو ينزل إليه . الصحراء واسعة وما يرونه نقطة فى بحر الرمال ، لذلك لم يكرر أحد الحديث عن إيلات ، لم يبد أن لدى أحد كلمة يقولها عنها ، وظل السائق يرمح على الطريق الجديد الجميل المعد بحيث لا تجرفه السيول ...

* * *

الحوار على المقعد

يتلفت ناجي فيرى كل الركاب نائمين أو فى حالة نوم . ذلك يحدث غالباً فى طريق العودة من الرحلات حتى لو انتهت الرحلة بسرعة كرحلتهم اليوم . لكن جاره لم يكن مثل بقية الركاب . راح يشعل سيجارة لنفسه ويقدم أخرى لناجي :

— أشكرك . أنا لا أدخن .

— غير معقول !

— ولم لا ؟

— لأنى لمحتك تدخن على الشاطئ مرة .

لم يتوقع ناجي الاشتباك فى هذا الحديث . ولأنه بالفعل لا يدخن ، اضطر أن يقول :

— ربما رأيت شخصاً يشبهنى .

يسكت الرجل قليلاً ليقول :

— لا أظن أن معنا أحداً يشبهك .

بدا الرجل يقول ذلك فى اصرار غريب . تتسع عيناه وهو يحملق فى ناجي الذى راح بدوره يعاند ويقول :

— لكنى بالفعل أقلعت عن التدخين منذ يناير الماضى .

ويطفو ضيق حقيقى ممزوج بالدهشة على وجهه . لقد فكر من قبل أن لا يستمر فى حديث مع هذا الرجل فما الذى جعله يتدحرج للاندفاع فى هذا الحوار غير المفهوم ؟

اتسعت عينا الرجل بالإعجاب وهو يقول :

— ثمانية أشهر الآن بلا تدخين شيء رائع . رائع جداً . لكن كيف حقاً نجحت في ذلك ؟

— اكتشفت أني أدخن منذ ربع قرن ولكن الدنيا لم تعد أجمل . بل ربما تزداد سوءًا ..

يسكتان . يبدو الارتباك على وجه الرجل . يحس ناجي أنه يدخل بالرجل في طريق لم يستعد لها . لكن يبدو أن الرجل قبل التحدي فهو يقـــول :

— قد يكون معك الحق . لكن الإنسان لا يستطيع أن يربط بين التدخين وحال الدنيا ، ربما يكون ذلك صحيحاً مع حاله هو . هكذا يكون الأمر أكثر واقعية – ثم يخفض الرجل صوتـه جداً ويقول – حضرتك حالك الآن أسوأ من زمان ؟ .

— تقريباً .

يرد ناجي على مضض فيستمر الرجل .

— لكني أراك سعيداً على الشاطئ .

لا يرد ناجي هذه المرة . الإنسان قد يكون مجبراً أحياناً على السعادة . ذلك يحدث مثلاً مع جواد زوج خديجة الذي تحدثت عنه لنور الصباح . انه مريض بمرض خطير يسبب له آلاماً فظيعة من وقت لآخر ، لكنه يقاتل حتى لا يبدو تعيساً فتنتشر التعاسة حوله ، خاصة في مثل هذا الأسبوع الذي جاءوا فيه ليغسلوا عن أرواحهم تعب عام كامل .

ولم يشأ ناجي أيضاً أن يخبر جاره أن الإنسان أحياناً يتمسك بالحياة من باب التحدي لأعدائه الذين يريدونه أن يموت . في هذه الحالة قد يضطر الإنسان إلى الدخول في حالة من اللا مبالاة، وهو يراهم يسرفون حتى قوت أطفاله وحقهم في المستقبل . ذلك تقريباً ما يحدث لمعظم الناس

الآن . يعيشون في وطن لا يحبونه ، ولا يكرهونه . فقط لا يفكرون في وجوده ، رغم كثرة الحديث عن الوطن في المدارس ، والصحف والاذاعات . لكن ناجي لا يحب الخوض في السياسة . سيقول لجاره إن السعادة الآن تمرين يومي . لكنه لا يقول ذلك . يسكت ويسأله الرجل :

— المدهش أنك اخترت شهراً شديد البرودة للإقلاع عن التدخين . كان أحرى بك أن تفعل ذلك في الصيف .

— لكن يناير جاء حاراً هذا العام . أليس كذلك ؟

هكذا وجد ناجي نفسه يسأل الرجل بلا ترتيب سابق فيسبب له إرباكاً أكثر ليقول بلا حول :

— يناير يأتي دائماً بارداً منذ خلق الله الأرض .

يسكتان ، لكن الرجل يقول بعد لحظة والحُمرة تعلو خديه .

— لعلك تقصد حرب الخليج . معك حق . كانت الكويت تحترق ، وبغداد تنهدم ، والبصرة تُدفن في الأرض ، والصواريخ تطير بالليل إلى الرياض وتل أبيب ، والواحد لا يصدق أن الكرة الأرضية لا تزال في مكانها . لكن حقاً كيف أقلعت عن التدخين في تلك الظروف الصعبة . لا بد أن لديك إرادة حديدية ؟

هل كان ناجي يريد أن يصل بالحديث إلى هذه النقطة وهو لا يدري ، ربما ، ها هو يزفر زفرة الذي يتذكر شيئاً أليماً ويقول :

— في تلك الأيام لم أكن أنام . كنت أقف طول الليل أستمع للإذاعات الأجنبية ، لا بد أنك كنت تسهر أيضاً .

ينظر الرجل إليه مندهشاً ويقول :

— لا . كنت أنام مبكراً .

ويسكتان . يبدو الضيق على وجه ناجي . كم هو أحمق بحق ؟ ماذا يريد أن يستمع من الرجل ؟ ...

— ثمانية أشهر الآن بلا تدخين شيء رائع . رائع جداً . لكن كيف حقاً نجحت في ذلك ؟

— اكتشفت أني أدخن منذ ربع قرن ولكن الدنيا لم تعد أجمل . بل ربما تزداد سوءًا ..

يسكتان . يبدو الارتباك على وجه الرجل . يحس ناجي أنه يدخل بالرجل في طريق لم يستعد لها . لكن يبدو أن الرجل قبل التحدي فهو يقــول :

— قد يكون معك الحق . لكن الإنسان لا يستطيع أن يربط بين التدخين وحال الدنيا ، ربما يكون ذلك صحيحاً مع حاله هو . هكذا يكون الأمر أكثر واقعية – ثم يخفض الرجل صوته جداً ويقول – حضرتك حالك الآن أسوأ من زمان ؟ .

— تقريباً .

يرد ناجي على مضض فيستمر الرجل .

— لكني أراك سعيداً على الشاطئ .

لا يرد ناجي هذه المرة . الإنسان قد يكون مجبراً أحياناً على السعادة . ذلك يحدث مثلاً مع جواد زوج خديجة الذي تحدثت عنه لنور الصباح . انه مريض بمرض خطير يسبب له آلاماً فظيعة من وقت لآخر ، لكنه يقاتل حتى لا يبدو تعيساً فتنتشر التعاسة حوله ، خاصة في مثل هذا الأسبوع الذي جاءوا فيه ليغسلوا عن أرواحهم تعب عام كامل .

ولم يشأ ناجي أيضاً أن يخبر جاره أن الإنسان أحياناً يتمسك بالحياة من باب التحدي لأعدائه الذين يريدونه أن يموت . في هذه الحالة قد يضطر الإنسان إلى الدخول في حالة من اللا مبالاة، وهو يراهم يسرقون حتى قوت أطفاله وحقهم في المستقبل . ذلك تقريباً ما يحدث لمعظم الناس

الآن . يعيشون في وطن لا يحبونه ، ولا يكرهونه . فقط لا يفكرون في وجوده ، رغم كثرة الحديث عن الوطن في المدارس ، والصحف والاذاعات . لكن ناجي لا يحب الخوض في السياسة . سيقول لجاره إن السعادة الآن تمرين يومي . لكنه لا يقول ذلك . يسكت ويسأله الرجل :

— المدهش أنك اخترت شهراً شديد البرودة للإقلاع عن التدخين . كان أحرى بك أن تفعل ذلك في الصيف .

— لكن يناير جاء حاراً هذا العام . أليس كذلك ؟

هكذا وجد ناجي نفسه يسأل الرجل بلا ترتيب سابق فيسبب له إرباكاً أكثر ليقول بلا حول :

— يناير يأتي دائماً بارداً منذ خلق الله الأرض .

يسكتان ، لكن الرجل يقول بعد لحظة والحُمرة تعلو خديه .

— لعلك تقصد حرب الخليج . معك حق . كانت الكويت تحترق ، وبغداد تنهدم ، والبصرة تُدفن في الأرض ، والصواريخ تطير بالليل إلى الرياض وتل أبيب ، والواحد لا يصدق أن الكرة الأرضية لا تزال في مكانها . لكن حقاً كيف أقلعت عن التدخين في تلك الظروف الصعبة . لا بد أن لديك إرادة حديدية ؟

هل كان ناجي يريد أن يصل بالحديث إلى هذه النقطة وهو لا يدري ، ربما ، هاهو يزفر زفرة الذي يتذكر شيئاً أليماً ويقول :

— في تلك الأيام لم أكن أنام . كنت أقف طول الليل أستمع للإذاعات الأجنبية ، لا بد أنك كنت تسهر أيضاً .

ينظر الرجل إليه مندهشاً ويقول :

— لا . كنت أنام مبكراً .

ويسكتان . يبدو الضيق على وجه ناجي . كم هو أحمق بحق ؟ ماذا يريد أن يستمع من الرجل ؟ ...

ويعود الرجل ليتساءل :

— لكن لماذا حقاً كنت تسهر ؟ . هل كنت تعرف أحداً هناك ؟ أعني في الكويت أو العراق أو حفر الباطن ؟ .

— لا .

يرد ناجي باقتضاب الذي يخشى علي نفسه من الانفجار المباغت .

لكن الرجل يستمر .

— لا بد أنك تعبت جداً ، لا نوم ولا تدخين . هذه حياة قاسية للغاية .

يعودان للسكوت . الرجل في حالة إعجاب حقيقي بناجي ، وناجي في حالة من الألم الكبير ، لكنه لا يستطيع أن يفضي بشيء فالرجل بعيد بعيد ، ولن يجديه أن يخبره بأن له أصدقاء في العراق أو الكويت أو حفر الباطن كما يقول . ثم إن الرجل فيما يبدو مسكين ، وربما لذلك عاد ناجي للحديث . لكنه يغيره ويتساءل ؟

— هل رأيت القناديل التي يصطادها الأطفال ؟

— نعم رأيتها .

— هل ترى لها جلداً أم أنها كلها جسد من الجلد ؟ . جدارها سميك ، جدار جسدها . والغريب أنها رغم نعومتها تتغذى على الأسماك والقشريات ، هل تعرف شيئاً عن السلسلة الغذائية في البحار ؟ .

— لا ..

— أنا أيضاً لا أعرف . ربما كانت الشُعب المرجانية أول السلسلة . هي كذلك فعلاً . إنها ليست صخوراً كما يتصور البعض ، بل ملايين الحيوانات ذات الخلية الواحدة . القشريات تتغذى على الشُعب المرجانية . لاحظ ذلك جيداً . تأتي قناديل البحر التي هي أقل صلابة من الجميع لتأكل القشريات والسرطانات والأسماك بأشواكها

وعظامها . إنها تذيبها وتمتصها . هل تعرف من الذي يأكل القناديل ؟ إنها السلاحف المائية التي تبدو أنها انقطعت من البحر المتوسط الآن ؟ لقد أصبح أكبر بحيرة ملوثة في العالم البحر المتوسط هذا ..

ويسكتان من جديد للحظات أطول حتى يقول الرجل :

— أيام الحرب قيل إن السلاحف ماتت في الخليج أيضاً بعد إطلاق بقعة النفط .

لا يرد ناجي الذي يود الآن ، وبصدق لا يعرف مصدره ، أن لا يعود لأيام الحرب ، لكن الرجل يندفع في غيظ حقيقي ليقول :

— القنديل حيوان قذر . رخو بليد . تافه في نهاية الأمر يستسلم للموج يضربه كما يشاء ، ويحمله كما يشاء ، ليلقي به أنى يشاء ..

يشعر ناجي بالارتياح إذ يبدو له أن الرجل يصل بالحديث إلى نهايته . لكنه يرى سمير يتقدم ناحية السائق يطلب منه التوقف ، فيسأله :

— ماذا جرى ؟

— نسيت الكاميرا وكل الأفلام التي صورتها طيلة الأيام السابقة عند الصخرة . كنت أضع الجميع في كيس بلاستيك تركته جوار الصخرة ، ووقفت أملأ عيني باتساع البحر وزرقته ، ثم نزلت ونسيت كل شيء ..

كان السائق قد توقف فيسأله ناجي :

— هل يمكن أن نعود جميعاً إلى هناك ؟ لدينا وقت .

لكن الركاب الذين كانوا استيقظوا مع توقف السائق المفاجئ هذا ، أدركوا أنهم اقتربوا كثيراً من العريش . صاح بعضهم :

— صعب أن نعود فالمسافة طويلة .

ويحسم السائق الموقف .

— ليس لدى وقود كاف للعودة ، وكما رأيت فلا محطات وقود فى الطريق .

وتأتى الأصوات من خلف ناجي :

— سيارات الأجرة كثيرة على الطريق .

يكتشف السائق أن سمير نزل قبل هذا الحوار كله أو نصفه على الأقل .. تهمس شادية فى أذن نور الصباح « قلة ذوق » وتشير لزوجها بأصابعها تودعه من خلف زجاج النافذة . يبتعد الميكروباص . يسأل الرجل ناجي :

— هل تراه سيجدها ؟ . الكاميرا والشرائط المصورة . لا أظن ... لقد قابلتنا سيارات سياحية إسرائيلية ذاهبة إلى الصخرة ، والكاميرا ليست بالشيء الرخيص الآن .

يطلق السائق صوت المسجل فجأة فيرتفع صوت المغني ، ويرتفع معه صوت الأطفال « يا أم العيون العجب هدّى القمر هَدّى .. الشعر لون الدهب والقلب من فضة » . يهتز ناجي .. متى استيقظ هؤلاء الأطفال وكيف قرروا الغناء بهذه القوة ؟؟

* * *

القنــــاديل

— كيف أمسكت بالقنديل يا زياد ؟

— حملته . لم أمسكه . لا يمكن إمساكه . ينزلق بسهولة . الأسهل حمله بشرط من ظهره .

— أعرف ، أعرف . أقصد كيف حملته ولم يلدغك ؟

كانا شبه نائمين فوق الماء يتأرجح بهما بهوادة مهد جميل ...

— إنه لا يلدغ .. يفرز مادة قلوية . أجل قلوية لأننا نضع فوقها الخل . حمض الخليك . هل نسيت يا بابا ؟ .

كان يراجع معه دروسه العلمية طوال العام الماضى .

— لا . لم أنس .

— الخل مع القلوى يتعادلان فلا يستمر تأثير المادة القلوية .

— لكن كيف لم تخف أن تطولك المادة القلوية للقنديل .

ازداد حماس الولد فأجاب :

— القنديل لا يفرزها من ظهره . يفرزها من بطنه . بالتحديد من اللوامس المتلاصقة الطويلة فى بطنه مثل الأصابع الشمعية . لذلك وجدنا بينها أسماكاً صغيرة وكابوريا صغيرة أيضاً ...

— أسماك حية ؟ .

— ميتة . القنديل يفرز المادة الحارقة على أى جسم يقترب منه ، فيفقده الاحساس فى الحال ، خاصة إذا كان صغيراً . ثم يفتح القنديل لوامسه يأخذه بينها ، يذيبه فى المادة القلوية ويمتصه ، ليس للقنديل فم ولا أسنان .

كان ناجي قد اختل توازنه فوق الماء ، فوقف يقول لابنه :

— من أين لك كل هذه المعلومات ؟

— من دائرة المعارف التي اشتريتها لنا .

— وهل نحن لدينا دائرة معارف ، وهل أنا الذى اشتريتها ؟

— طبعاً . إنها جميلة جداً . لقد اشتريتها منذ عامين . كيف نسيت ذلك ؟

حاول ناجي من جديد النوم على ظهره فوق الماء ، أغمض عينيه وقال :

— طيب . ألا تخشى أن ينقلب القنديل على يدك ؟

— إننى أرفعه بحرص ، ثم أنه أيضاً ميت لا حياة له .

— ميت ؟ .

— ألا تراه يحمله الموج ويؤرجحه كيفما يشاء فإذا لم نمسكه عاد مع الموج إلى قاع البحر . القنديل لا يكون عالياً هكذا في الماء . غالباً يسبح في الأعماق إذا كان حياً . ثم ألم تر أننا أمسكنا بقناديل كثيرة بلا نوامس ؟ كانت ممزقة قطعاً . لا بد أن محركات السفن الضخمة في عرض البحر هي التي فعلت ذلك . لكن هذا لا يعني أن لا خطورة فلا تزال في اللوامس بقايا من المادة الحارقة .

ولا بد أن الولد أدرك فيما يفكر أبوه . هذا الحيوان الغريب الذى يبدو جميلاً تحت الماء وباهراً كيف يصبح مقززا إلى هذه الدرجة فوقه . هل هي هلاميته وجيلاتينيته وشمعيته ورخاوته تبعث كلها على التقزز ؟ . لقد فوجئ ناجي بابنه يقول له :

— القنديل حيوان مسكين لا قدرة له على مقاومة الموج وخصوصاً إذا كان صغير الحجم مثل الذى نصطاده . هناك طبعاً قناديل متوحشة

يصل حجم الواحد منها إلى حجم زورق لكنها لم تظهر حتى الآن ...

وضحك زياد فجأة ثم أشار إلى الشاطئ وهتف :

— صاحبة ماما . دائماً تبحث عن أصحابها كل يوم ساعة المغرب .

* * *

الفتاة الفلسطينية

كان اليوم هو الثالث . الرابع . بل الخامس لهم في العريش . لماذا يحاول تحديد اليوم الذى رأى فيه الفتاة الفلسطينية وهو يراها كل يوم ؟ .

كان الجلباب هذه المرة أصفر . اقترب منه جواد مبتسماً وهو يقول هامساً « هل تحب البحر الأصفر ؟ » الجلباب يخطف الأبصار بلونه والزهور الزرقاء ، التي تتوزع على مسافات بعيدة فيه ...

قرر ناجي أن يخرج يعترض طريقها . هكذا كشاب في العشرين . لا بد أن التجرد من الملابس يعطى الإنسان الاحساس بالحرية . يأخذ معه كثيراً من المواضعات الاجتماعية والأعراف الضاغطة . يصبح الإنسان طفلاً يعبث في الماء .

وقف في طريقها ولم ترتبك . ابتسمت وهي ترى ابتسامته . رآها أصغر حجماً مما تبدو عليه من بعيد . هذه الخدعة النسائية لا يجد لها تفسيراً حتى الآن . تبدو الفتيات والنساء دائماً من بعيد أكبر حجماً مما هن عليه من قريب . ذلك ضد قوانين الطبيعة وضد قوانين ابن الهيثم واكتشافاته . أين إذن يكمن السر ؟ مراوغة حتى في الشكل . لعل الناظر دائماً في احتياج . ذلك سؤال قديم للفلاسفة اجابته البسيطة أنه يرى كما

يهوى ، وغالباً هى رؤية يشوبها الجنس والعاطفة . تبدو المرأة دائماً من بعيد دعوة جنسية صارخة . وفاجأته الفتاة الفلسطينية :

— مساء الخير أبو زياد .

لم تره من قبل عن قرب . كانت إذا نظرت إلى البحر تراقب الأطفال ، فهم الذين يحملون أسماء فلسطينية . لا بد أنها نظرت إليه أيضاً فهو الذى حمّلهم هذه الأسماء . ربما لن ترى غير رأسه ، لكن الإنسان لا يحتاج لأكثر من ذلك ليعرف من ينظر إليه . وهل هناك معنى لرؤية جسد الرجل بعد رؤية وجهه ؟

وبينما ظل هو مرتبكاً كشاب تحت العشرين سألته :

— وين أم زياد ؟

— بالشاليه .

وقبل أن تحمله التحية إليها سألها :

— هل وجدت أصدقاءك ؟

ضحكت وأجابت :

— إنهم شياطين ما أكاد أجدهم إلا ويختفون .

قالت الجملة الأخيرة بعتاب وأسف ، لكنها ظلت تبتسم بلطف ، وهو أفسح لها الطريق تمضى .

كان يريدها أن تقف أكثر لكنه رأى الخجل ينصب خيمته على وجهها ، وهو بدوره حمله ما يشبه الأثير إلى وقت فيه برد وفيه ضباب . إلى الشمال الذى كلما رآها انتقل إليه .

يكاد يدخل فى بعضه رغم المعطف والكوفية . يمشى ويديه داخل المعطف والشبكة فوق رأسه . يمشى بتؤدة على الأرض السوداء ذات القرميد الجامد تلمع أمامه مغسولة بالثلج الساقط من السماء والبخار

المتكثف من الضباب وأنفاس الناس ، والجدران والقباب الحمراء عن يساره والزحام أمام جنديى الحراسة اللذين ظنهما تمثالين من الشمع ثم أدرك أنها مقبرة لينين وأنهما الحارسان لها يتغيران كل ساعة فى مشهد مهيب وجميل يأتى إليه الناس من كل الدنيا يتفرجون .

كانت الأضواء القادمة من أعلى جدران محل « جوم » الضخم تشعل الميدان ، ومعها الأضواء القادمة من أعلى أسوار الكرملين ، والوجه الجميل يحاصر الإنسان دائماً من كل اتجاه ، والحقيقة انه يكون متجهاً إليه من ناحية واحدة فقط . هل هذه خاصية نسائية أيضاً أم خداع طبعى أم ظاهرة لها علاقة بعمر الفتيات الصغير وكهولته ؟ .. لعل ذلك الوجه الجميل أن يعطيه اليقين بأن لليل صباحاً وللدنيا شمساً وإن كانت لا تزال فوق الضباب . بياض وحمرة فى الوجه الفلسطينى أفضيا به إلى بياض وحمرة وجوه الشمال إلا أن الأنف فى موسكو يختلف والعينين . العينان هناك زرقاوان فيهما عمق البحار ودهشة الاوقيانوس ، وخاليتان من أى احساس بالألم أو التوجس . والأنف الموسكوفى ، ذلك الأنف بالذات الذى كانت تحمله « أولجا » أو « أولا » ، كان أصغر أنف فى العالم . قالت ذلك زميلتها « ناتاشا » التى لم تأت معها بعد ذلك . أضاف هو أن فيه عظمة الرومان . وكانت زميلتها تعرف قليلاً من الإنجليزية فترجمت لها وله ، ورأى الوجه الأبيض المشرب بالحمرة اللامع البشرة الدافئ الريان يمتلئ أيضاً بالاحساس بالفخر ، وهمست باسمها فقال وأنا أسميك « كليوباترا أو الملكة » ، فأغمضت بحار عينيها لحظات شربت فيها المعنى العميق للعظمة التاريخية .

لم يكن صعباً بعد ذلك عبور الشارع والجسر القريب إلى « فندق روسيا » الضخم حيث ينزل فى دوره السابع ، ولا العودة منه بزجاجة المارتينى وهما تنتظرانه جوار الباب الشرقى للفندق . ابتسم وهو ينزل

في المصعد وقال لنفسه « كأنه لم يعد لك في موسكو من عمل غير فتح قلوب العذارى بالمارتيني الايطالي والمارلبورو الأمريكية » .

عرف كيف يقول « دسفدانيا » وهو يودعها وصديقتها . ويقول أيضاً « زافترا » ضارباً موعداً في الغد . وفي الغد أتت وحدها « أولا » وعلى شاطئ نهر موسكو مشيا حتى أخذته إلى دغل غير كثيف من أشجار الكستناء والصنوبر وشربا المارتيني معاً . ولما سألها أن تصعد معه إلى الفندق متوقعاً أن ترفض ، وافقت ، ولكن على أن يتم في يوم آخر . « لماذا حقاً لم يحضر إلى موسكو وهو في العشرين من عمره ؟ » .. ظل يسأل نفسه هذا السؤال كلما رآها . ما أجمل ما ضاع من أشياء . للأسف أضاعتها أشياء أقل قيمة . هل يكون عشقك للباليه الروسي صحيحاً دون أن تراه ولو مرة على مسرح البولشوي ؟ ما قيمة أن تُفتن بالقوزاق دون أن تمشي قليلاً في ريف أوكرانيا ؟ وما معنى أن تحب تروتسكي دون أن تتجول في لينينجراد ؟ هل يقول بطرسبورج ؟ لم يكن هناك قيمة لأي شيء قرأه عن الاتحاد السوفيتي دون أن يراه . كان عليه أن يفهم ذلك مبكراً . ربما لذلك تخلى عن حلمه القديم بسرعة . لقد ابتعد كثيراً عن الماركسية . وها هي البلاد الماركسية تفعل ذلك لكن الفارق جد رهيب . إنه لم ير شيئاً من الحلم بينما هنا رأى الناس ولو غبشاً من الفجر ، أجل ، غبش من الفجر رغم ما يحدث من تراجع عن كل شيء . لقد سمع المحتشدين في مظاهرة الأحد ، التي أعلن عنها بعد وصوله بيومين ، يتحدثون عن البلاشفة الذين سرقوا الثورة الديمقراطية للمناشفة . هكذا بشكل صريح ، وفي ميكروفونات عالية . وكان مرافقه السوفيتي لا يكف طول الطريق عن الحديث عن فظائع ستالين . وحين رآه يتطلع إلى العمارات السبعة الشهيرة التي أمر ستالين ببنائها على طراز الكرملين ، قال إن الذين بنوا هذه العمارات هم المعتقلـــون السياسيون ، وإن أوامر ستالين كانت محددة ، هي القاء كل من يتراخى

في العمل من ذلك الارتفاع الشاهق للمبنى . لقد فُتن ناجي بأبهة المعمار ، وارتفاع المبنى في السماء ، وأوشك أن يسأل مرافقه كيف كانوا يلقون الكمالي في المراحل الأولى للبناء على الأرض ؟ لكنه ابتسم ولم يتكلم . رغم ذلك فهو يعرف الكثير عن فظائع ستالين . لكنه أيضاً ود لو يصرخ في أحد ، في الجميع ، ماذا تفعلون بحق الجحيم ؟ لكنه لم يصرخ . في وقت مبكر أدرك أن تحقيق العدل في الدنيا أمر محال . الماركسية عمل جنوني أقرب إلى التراجيديا اليونانية . مأساة حقيقية إذ كيف حقاً يمكن إشاعة العدل في العالم وتاريخ البشرية هو تاريخ الظلم والظالمين ؟ المتفرجون الآن ينصرفون من المسرح بعد أن تطهروا حتى النهاية ، والممثلون أدوا أدوارهم ببراعة . لقد حاولوا العدل لكن حكم الآلهة كان أقوى ..

كانت درجة الحرارة في الليلة الأولى التي قابل فيها « أولا » العاشرة تحت الصفر ، وقبل الساعة الثانية عشر كاد يخلع ثيابه من الحرارة التي تتقد في جسده ، وهو يمشي محتضناً « أولا » إلى جانبه في طريقهما إلى محطة المترو القريبة من الفندق . في الليلة الأولى مشى في الوسط . ذراعه اليمنى تحيط بـ «أولا» واليسرى بزميلتها «ناتاشا» التي لم يخلقها تولستوي . وظل كل ليلة يودع « أولا » عند محطة المترو حين ينتصف الليل . كانت حريصة دائماً على الحضور في موعدها ، في السابعة مساء كل يوم ، لكنها أبداً لم تصعد إلى الغرفة . راحت تؤجل الموعد يوماً بعد يوم . لم تطلب منه هدايا ولا نقوداً ، تقدمت في فهمه بالاشارة وبالكلمات الانجليزية البسيطة التي علّمها لها والكلمات العربية أيضاً ، وكان هو يفهمها بالعشر كلمات الروسية التي زادت إلى عشرين الآن .

لقد عرف أن لديها طفلاً وأن زوجها طيار مدني ، وعرف منها وهي تضحك متألقة أنه في عمر أمها ، وأنه يشبه زوجها في كل شيء ،

لم يفهم لكلامها أى معنى غير المداعبة والبراءة .. لاحظ أنه يترقب موعدها كل يوم بشغف . أحب الذهاب بها كل ليلة إلى « البريوتكا » الملحقة بالفندق لشراء المارتيني أو « الكاميرى » الذى تحبه ، ويشربانه فى الدغل الكثيف الذى لا يتكلم . لما فكر فى شىء لم يتم ، اكتشف أنه الوفاء بوعدها بالصعود إلى غرفته . لكن كانت هناك أيام باقية له فى موسكو لا تزال ..

* * *

عُمَر الصِدِّيق

كان ناجى على يقين بأن الاضطراب الذى ظهر على وجهه يوم أخبر جواد بالشبه بينه وبين أحد أصدقائه ، هذا الاضطراب الذى تسبب فيه نسيانه لاسم صديقه ، يمكن أن يشى بالكذب لجواد . لذلك لم يهمل التفكير فى اسم صديقه ليبدو صادقاً . فى كل لحظة يجد فيها الاسم أمام عينيه ، ويمد يده ليمسك به ، يختفى الاسم المراوغ . أمس بينما هو عائد مع سمير من البلدة استقلا تاكسياً وقال للسائق :

— عند مطعم القدس .

رد السائق متسائلا :

— تقصد أمام جامع الخلفاء .

— لا أعرف اسم الجامع .

— اسمه جامع الخلفاء . مشهور على البحر .

قال السائق ذلك ، فقفز اسم الصديق المنسى إلى ذاكرة ناجى . الخلفاء الأربعة . عمر واحد من الخلفاء . صديقه اسمه عمر لكنه ليس الفاروق بل الصدِّيق . أجل . هكذا أراد أبوه أن يحمّله كُنية أبى بكر .

كان أول ما فعله ناجى هو النزول إلى البحر ليخبر جواد الذى كان فى الماء باسم الصديق ، ويمحى أية صورة غير حقيقية تكون تكونت عند جواد عنه .

حمل الموج خديجة ونور الصباح وشادية معاً بعيداً عنهما ، جواد وناجى ، وعن المرأة ، شهر زاد ، التى يقف زوجها فى الماء حاجزاً للموت . وقال ناجى لجواد :

— هل تذكر أنى حدثتك عن صديق لى يشبهك تماماً ؟

— أجـل .

أجاب جواد ضاحكاً :

— ألم أقل لك إنه كان له نفس صوتك الرنان اللامع وأنفك الطويل قليلاً وعينيك اللوزيتين ؟

— لا أذكر ذلك ، لكن هل هو يشبهنى إلى هذا الحد ؟

— المدهش هو الصوت ، كأن لكما أحبالاً صوتية واحدة ، وكذلك طريقة الكلام التى تسهم معها العينان بالاستغراب الدائم أثناء الحديث . لقد كان صديقى هذا غريباً جداً . كان يحب عمر ابن الخطاب أكثر من أى شىء فى الدنيا . يقول دائماً وهو يقطع قطعة الحشيش بين أسنانه أقراصاً صغيرة « ابن الخطاب كان استثناء فى تاريخ البشرية ، لم يكن عادلاً فقط ، بل كان العدل نفسه مجسداً ، ولا أظن أن البشرية ستجد العدل يمشى بينها على قدمين مرتين » .

كان الموج هادئاً ذلك المساء كالعادة .. المياه بدأت تشع دفئها . شهرزاد تسبح أمام زوجها المرعوب ، تمشى أمامه وسط الماء ، خديجة ونور الصباح وشادية خرجن من الماء وجلسن بعيداً مع الأطفال .. الفتاة الفلسطينية لم تظهر بعد . وناجى يتحـدث

دون انقطاع كأنما يريد أن يؤكد ألف مرة أنه كان صادقاً حين قال لجواد إنه يشبه صديقاً له ...

« كان صديقي هذا اسمه عمر ، وكان لنا صديق ثالث نجتمع عنده عادة في ليالي الشتاء . كان ذلك في السبعينيات . منذ أكثر من خمس عشرة سنة . لم نكن قد تزوجنا بعد ، والسادات يجرى منحرفاً بعربة المجتمع بسرعة هائلة مطلقاً العفاريت علينا من كل اتجاه ، وكنا نجتمع يائسين نطلق أقصى درجات الضحك حول دخان الحشيش ، كنت أنا الذى أذهب كثيراً لصديقنا الثالث . نتذكر عُمر فنجده يطرق الباب . يصل فتمتد السهرة حتى الصباح إذ يخرج من جيبه مبتسماً بوداعة ودهشة طفولية قطعة الحشيش التى معه ...

أين كنت يا عمر ؟ فى سيوه . ويختفى ليعود ، أين كنت يا عمر ؟ فى النوبة . ويختفى ويعود . أين كنت هذه الفترة ؟ فى سانت كاترين ، فى الدير ، فى وادى النطرون . ويختفى ويعود .

فى كل مرة يحدثنا عن تصوره للحضارة المصرية ويدعونا لعدم اليأس ، « طيب ، السادات صالح إسرائيل . ليكن . الشعب المصرى يخاصم إسرائيل والحكومة معاً ، وسيأتى يوم ينتهى فيه الصلح ، إن لم تقم الدولة الفلسطينية ، ولأن حضارة مصر لا تقوم إلا إذا كان الباب الشرقى الشمالى هذا آمناً . هذه حقيقة فرعونية ، لا ينهيها اختلاف الزمان . ثم إن الفلسطينيين يتكاثرون أكثر من اليهود ، اليهود شعب محكوم تاريخياً أن يظل أقلية . شعب غير خصب جنسياً . أى والله . هذه حقيقة وليست أسطورة من أساطير أنيس منصور . الخصوبة العربية ستجهز على الدولة العبرية ، وقلة الخصوبة صفة ليست فى اليهود فقط ، إنها أيضاً صفة تركية . ومعروف علمياً أن الأتراك سينقرضون من الدنيا . ربما يحدث ذلك خلال ألف سنة على الأكثر » !

ويضحك دون صوت وتظهر الدهشة عميقة فى عينيه . ننطلق أنا وصديقنا الثالث فى الضحك ويقول عمر « شعوب رجالها مساكين » فننطلق فى الضحك أكثر يطوعنا الحشيش الجيد . يا الله . الحشيش لا يثير فى الإنسان أى روح عدوانية ، بل يحوله إلى حمل وديع . يقول عنه عمر إنه مؤدب ، وجبان ، يقصد الحشيش ، ويتركنا نضحك بينما هو لا يزيد عن دهشة الابتسام .

كان عمر عاشقاً لفن عمارة حسن فتحى يحلم لو تم هدم كل مبانى القرى والبلاد وبنائها على طريقة حسن فتحى ، أو هدمها جميعاً وعدم بنائها مرة أخرى . كانت لديه مشروعات كثيرة عن قرى سياحية ، ويحدد لكل مكان فى مصر خامات بنائه ، حتى جاءنا يوماً يقول ، إنه يريد أن يتبنى مشروعاً خطيراً . هل تعرف ماذا كان المشروع ؟

— لا .. ماذا كان ؟

تساءل جواد باسماً :

— الأراجيح ... إنتاج وبيع الأراجيح .

أجاب ناجى وقد كسا وجهه ألم خفيف وبدا شارد اللب وهو يتكلم ، ثم قال :

— أى والله كما أقول لك . قال « إن الأرجوحة الشعبية زمان كانت سهلة وبسيطة يمكن لأى شخص أن يصنعها ، مجرد خمسة عواميد من الخشب أو المواسير . أربعة منها تشكل الجانبين ، والخامس يمتد بينها من أعلى ، ويتعلق به المقعد بحبلين . أرجوحة بسيطة وسهلة يمكن لأى شخص وضعها فى أى مكان . الآن الأرجوحة الشعبية شيء رهيب جداً . فى حجم الترام . آلة ضخمة كلها حديد فى حديد تمشى على عجل ويحتاج صاحبها إلى ترخيص من الحكومة ، ليقف بها فى المكان الذى يريده ، لذلك قلت الأراجيح ،

ولم يعد الأطفال يعرفون طعم الهواء ، في وقت هم أحوج الناس إلى الهواء ، والطيران في الهواء . الأطفال الآن يولدون عجزة ويستمرون كذلك . إن إحساس الطيران بالأرجوحة لا يضاهيه إحساس في الطفولة البريئة . طيب . وكيف تنشر هذه الدعوة ؟. نحتاج إلى مساندة من الإعلام . الإعلام ليس معنا ، ننشرها عن طريق صحافة الماستر .

وكل أسرة تستطيع أن تصنع لها أرجوحة أمام البيت . أرجوحة لكل أسرة سيكون الشعار . وبعد انتشار الدعوة نبدأ في إنتاج الأراجيح . انظر كم نكسب ؟. إنه مشروع لا ينتبه إليه الانفتاحيون التعساء ، الذين ذهبوا يستجدون مخلفات طعام قواعد حلف الأطلنطى » ..

اختفى عمر ليعود بعد عام . بدا شارداً حزيناً . مالك يا عمر ؟. « أشعر بذنب فظيع » . لماذا ؟ . « كانت زوجتى عند أمها فى الاسكندرية وأنا وحدى فى الشقة . نظرت فرأيت زحاماً حولى من الأثاث يكاد يخنقنى . دخلت الحمام وأخذت دشاً رائعاً ، وخرجت فداهمنى الأثاث . أمسكت بالجريدة ورفعت سماعة التليفون واتصلت بصالة المزادات . جاءوا وحملوا الأثاث كله « نهارك اسود يا عمر » . لم أحتفظ حتى بالكتب . المشكلة أن زوجتى عادت ، ثم عادت لأمها بعد أن أقسمت أن لا تعود إلا إذا عاد الأثاث ! ، وأنا أحبها ولا بد أن أعيده ، لكن صالة المزادات ، كانت انتهت من بيعه . أثاث جميل بيع كله فى أول جلسة وتفرق الآن فى البلاد . « وماذا ستفعل يا عمر ؟ » . لا بد أن أعيد الأثاث قطعة قطعة من أجل خاطر زوجتى . هل تريانى سأنجح ؟ ولم نعد نراه بعد ذلك اليوم .

* * *

الطـــريق

كأن السيارة الميكروباص لا تجرى على الأرض . الهواء الطيب الداخل من النافذة يبعث على الشعور بالنشوة . وصدره الذى فتح قميصه عنه ، يمتص الهواء بمسامه المفتوحة للدنيا البيضاء . ذلك ما يعطيه الإحساس بأنه مسافر ممتط ظهر جواد رائع يخب مختالاً فى حقول واسعة . لعله أيضاً قرب البحر الذى يشمون هواءه وضخم ماءه فى الفضاء . لعله الوقت الذى انقضى بين الماء والهواء . ولعله شعور قديم بالرضا بالحال يطفو فجأة فيشمله .

الطريق الضيق محاط بالأرض الخضراء . شوك وصبار ونباتات عديدة لا يعرفها أكثرها شيطانى ، ونخيل كالعادة وبلح ذاهب للاحمرار واللمعان وأشجار لوز قصيرة كثيفة وأشجار زيتون مباركة وأشجار خوخ كبيرة ورائحة للصمت ..

انتهى شريط التسجيل الذى يحمل الأغانى المصرية الذى وضعه السائق بعد نزول سمير من الميكروباص . لا بد أنه أدار وجهاً واحداً للشريط فالمسافة ليست طويلة وسيدخلون البلدة بعد دقائق . ترى من يستطيع أن يعرف فيم يفكر الجميع فى هذه اللحظات الصامتة . يود ناجى النظر فى وجوههم وقراءتها . سيصفونه بالجنون لو فعل . لكن الصمت يثيره فالساعة بالكاد تذهب إلى الثالثة بعد الظهر ، والشمس لا تزال تسيد الدنيا ، والفضاء يمرح فيه الهواء . لعله المكان واتساعه يمتصان أشعة الشمس فيشيع السكون فى روحه ، المكان نفسه ، وفى روح البشر .

مشهد بيوت التنك والشعر المتناثرة على مسافات بعيدة جوار الأحواض الخضراء يوحى بالصمت المباغت . بيوت قديمة ممزقة رابضة عريضة الدائرة فوق الأرض لم تبرح مكانها منذ عشرات السنين . لا بد

أنها طلبت من آلهة الصمت أن تسكن جوارها وحولها ، أن تتحرك الشمس فوقها ببطء ، وأن تُفرغ حرارتها الدنيا من الريح والهواء .

ذلك الصمت الجليل فوق سيناء معرض للخدش في كل حين . سيناء دائماً بحر من رمال ودم منذ كان في الدنيا وطن اسمه مصر فيه نيل وشعب وأرض خصبة لها إله معبود . كل غاز قديم كان يأتي إلى مصر لتأمين بلاده التي بينها وبين مصر جبال وبحور وبحور وجبال ، وكل حاكم لمصر كان يضع أسوار مملكته في الشام والرافدين كما قال عمر الصدّيق . رمال سيناء إذن عظام مسحوقة . كرات دم تكلست ، والسيارة التي تمشي على الطريق الجديد القائم على رمال من عظام ودم الجنود عليها أن تمشي الهوينا . أجل . الأرض ناعمة مغرية بالسرعة ، لكن عليها أن تمشي الهوينا . يكاد ناجي أن يطلب ذلك من السائق . لكن سرعة السيارة تعني قلة وزنها أيضاً ، فليطلب من السائق أن ينطلق بأقصى سرعة فيخف ضغط العجلات على العظام ، وليطلب من الجالسين قراءة الفاتحة على روح الشهداء في كل العصور ، لكن مدينة العريش تظهر فجأة ويعود صوت الأطفال وتصفيقهم مع إيقاع الموسيقى الصاخبة ..

* * *

الوصـــول

توقف السائق فوقف مسئول الرحلة عند الباب وقال :

— ما زلت أكرر اعتذاري عن عدم التقدم أكثر في رفح . إننا نفعل ذلك كل يوم مع كل الأفواج . اليوم اختلف لأسباب ليست من عندنا على أي حال . أكرر اعتذاري وشكراً .

بمجرد أن انتهى وانتحى جانباً انطلق الأطفال ينزلون ، خلفهم النساء

ثم الرجال في غير ترتيب . « مجنون » قال ناجي ذلك للا أحد . بعد ذلك تفرق الجميع بين الشاليهات .

كانت خديجة وجواد جوار شادية ونور الصباح وناجي ، وكانوا جميعاً يضحكون من سؤال لجواد عن سمير وهل من الممكن أن يضل الطريق في الصحراء ولا يعود إلا بعد شهر يحكي قصص الثعابين التي أكلها ، والكهوف التي اختبأ فيها من الوحوش ، والمطر الذي نزل عليه سيولاً رغم أننا في الصيف ؟. وكان مما أدهش ناجي اكتشافه وهو يمشي إلى الشاليه بعد نزوله من الميكروباص أنه لا يزال يملك إحساس الذي يصل لأول مرة . ربما لذلك لم يتذكر أي شيء مما رآه الأيام القليلة الماضية ، ولا مما دار في رأسه خلال الرحلة . تذكر فقط المرأة التي جاءت إلى العريش مع زوجها منذ عامين ولم يعودا . شهرزاد . وفكر هل للاسم دلالة ما . امرأة عادية ليس فيها ما يفتن لا بد أن زوجها يجد فيها من حلاوة الروح أكثر مما يجد من حلاوة الجسد كما جرى العرف في مثل هذه الزيجات . ابتسم وهو يتذكرها في البحر وكيف يبدو زوجها في غاية الهلع كلما أوغلت خطوة واحدة في الماء .

ينظر ناجي إلى البحر وهو يدخل إلى الشاليه بعد أن أفسح الطريق لدخول نور الصباح وشادية . يرى زحاماً على الشاطئ قرب الماء . يطيل النظر . ينفجر الزحام بنساء وفتيات يرتدين الجينز والبلوزات القاتمة ينتحين إلى الجانبين ويدخلن في بكاء عنيف . يبدو ذلك من وضع أيديهن على وجوههن . يقوم رجل عن الأرض ويبتعد يائساً ، يدرك ناجي أنه الغطّاس الشاب . يمتد بصره إلى برج الغطّاس الحديدي فيرى الراية السوداء مرفوعة ترفرف . يا الله . من الذي جازف بخوض الماء وغرق ؟. هتف ينادي نور الصباح . رآها تندفع إلى الخارج بسرعة ومعها شادية زوجة سمير . رآهما تتجاوزانه وتقتربان من الشاطئ . رآهما تعودان بسرعة أيضاً . سمعهما تهتفان « خديجة . خديجة » . كانت

خديجة تأتي من الشاليه الواقع خلفه تتجه إلى البحر ولم يفطن فظن أنها هي التي غرقت ناسياً أنها كانت في الرحلة معهم ، لكنه رآها تتجاوزه إلى نور الصباح وشادية ، ورأى رجالاً يحاولون الإمساك برجل متوسط العمر يشد شعر رأسه ويلطم خديه . يعرف ناجي هذا الرجل جيداً . رآه يتقلب فوق الرمال كمن أصابه صرع شديد ويهيل الرمال فوق رأسه ويعفر وجهه . لا يكاد ناجي يصدق . كان جواد قد ظهر أيضاً ووقف قريباً منه ، وكانت النساء الثلاث قد عدن باكيات . لا يحتاج ناجي إلى أن يعرف شيئاً من أحد . غرقت المرأة التي يقف زوجها مثل حاجز الأمواج بينها وبين الموت ، والتي قصّت على النساء كيف جاءت إلى هنا مع زوجها ولم تعد ، وكيف صار يحبها ثم أجهشت في البكاء .

يجلس ناجي على أقرب مقعد في فراندة الشاليه . يشمله أسف شديد يكاد يصل إلى حد القهر . ما الذي جعل ذلك الرجل يحب زوجته كل هذا الحب فلا يمنعها من نزول الماء في يوم خطير مثل هذا اليوم ؟. من أي شهريار ورث الرجل كل هذا الحب ؟!

* * *

الحوار الأخير على المقعد

في المسافة القصيرة بين ظهور بلدة العريش ونزولهم عند الشاطئ عاد الذي يجاور ناجي إلى محاورتهم . عاد إلى شيء بدا أن كليهما قد أهمله . لكن الحقيقة أن ناجي وحده هو الذي كان قد أهمله ، بل تجاوز الإهمال إلى النسيان . قال الرجل :

— الكريم الذي اشتريته ليس عليه ما يشير إلى البلد الذي صنع فيها لذلك لا أعرف ما إذا كان فلسطينياً أم إسرائيلياً ؟

— يمكن أن يكون مصرياً أيضاً صنع في رفح نفسها وهذا هو الأرجح .

— حقاً هو بالفعل مصري .

كان من الممكن للحديث أن ينتهي هنا ، لكن ناجي الذي اندهش لعودة الرجل إلى الموضوع قرر أن يتشيطن . قال :

— ممكن أيضاً أن يكون إسرائيلياً ، بل هو كذلك بالفعل .

اندهش الرجل وسأله :

— ولماذا تُجزم ؟

— العرب لا يخجلون من كتابة ما يفيد أنه صناعتهم ، ربما يفخرون ، أنت طبعاً تعرف تاريخ العرب ..

فكر الرجل قليلاً وابتسم وقال :

— صحيح . البعض لا يتورع عن صيد الغلمان ، وألف ليلة وليلة نفسها صناعة عربية !!

قال ناجي :

— لكن هذا لا يعني أن الإسرائيليين يخجلون . إنهم فقط يتجاهلون . لا يحبون الإفصاح عن هويتهم في هذا الشأن لأنهم متهمون بترويج هذه العقاقير بين الشباب العربي . هنا مثلاً في العريش أيام الاحتلال كانت السينما الوحيدة في البلدة لا تعرض إلا الأفلام الجنسية ، وأفلام من نوع خاص يمارس الجنس فيها بشكل عائلي . وكانت أفلام كوميدية أيضاً . إذ يبدو كل شيء يحدث بالطريق الخطأ غير المقصود بين الأبناء والأمهات ، والآباء والبنات ، فيبتلع المتفرج السم من خلال الكوميديا . وكان الشباب السيناوي يذهب للعمل داخل إسرائيل طيلة الأسبوع فيكسب كثيراً لكن الدعاية الإسرائيلية تسوقه آخر الأسبوع ليقضي أجازته في مواخير يافا ينفق فيها كل شيء اكتسبه في الأيام السابقة .

كان الرجل خلال هذا الحديث ينظر إلى ناجى كأنه يراه لأول مرة وقال :

— كلامك معقول جداً .

هنا اندفع ناجى فى الشيطنة وقال :

— كذلك لا يضع الإسرائيليون ما يشير إلى صناعتهم لهذا الدهان لأنهم لا بد وضعوا فيه مادة قاتلة ، أو على الأقل تسبب دماراً للجهاز التناسلى .

— يا ساتر يا رب .

هتف الرجل واندهش ناجى لنفسه وشيطنته المفاجئة هذه . لم يكن لديه أى سبب واضح لذلك لكنه ظل سارداً فيه . قال :

— هل تعتقد أن إسرائيل تهتم أن يستمتع العرب جنسياً ؟ هل تثق فى ذلك ؟

— لا أظن .

— إذن لا تنتظر خيراً ، والأفضل أن تلقى بهذا الكريم .

سكت الرجل متحيراً بحق ثم قال بصوت هامس مكسور :

— أظن أنه من المناسب أن نخبر أصدقاءنا أيضاً ودخلا فى صمت قصير لكنه عميق ، ولا بد أن الرجل قلّب الأمر على أكثر من وجه لأنه عاد يقول :

— لكن ألا ترى أننا لسنا أول من اشترى الدهان الملعون ، فلماذا إذن لم نسمع عن أى عَرَض سلبى له ؟

عادت روح الشيطنة بسرعة إلى ناجى :

— لأنه فى مثل هذه الأمور يحسن التكتم . هل تعرف أنت مريضاً واحداً بالزهرى مثلا ؟. لا أظن . رغم أن الزهرى مرض شائع .

فما بالك والأمر يتعلق بمرض خطير . لا أظنك ستصل أبداً إلى مريض واحد .

— معك حق .

عاد الرجل يتحدث بصوت خفيض ، وفى كلماته لا يزال ما يشى بالارتباك وعدم التصديق . وقال ناجى :

— لا تنس أن مريض الزهرى يصاب بسبب عدم التمييز بين النساء ، لكن فى مثل حالتك ، وآسف على التعبير ، الأمر يتعلق بالعجز الجنسى .

— تقصد مرض وفضيحة ؟

— هذا بالضبط .

ودخلا فى الصمت العميق للحظات ثم اهتز الرجل واتسعت عيناه بالفرح ، وهو يقول :

— لكنك اشتريت نفس الكريم .

— أحببت أن لا أسبب لك أى حرج فقلت ذلك ، والحقيقة أنى لم أشتر .

عادا للسكون وبدا الرجل حزيناً حتى لقد اسود وجهه ، ودخل ناجى فى طور من اللوم لنفسه على جنونه المباغت .

فى اللحظة التى توقفت فيها السيارة ، وبعد أن انتهى مسئول الرحلة من الاعتذار السخيف عن عدم عبور السلك ، وقبل مغادرة الميكروباص ، همس الرجل إلى ناجى قائلا :

— أرجو ألا تتحدث معى فى هذا الموضوع مرة أخرى . سوف ألقى بالكريم بمجرد وصولنا إلى الشاطئ . لا تحاول أن تذكرنى به . الدنيا صغيرة كما تعرف وقد نلتقى مرة أخرى فى مكان آخر ، حينئذ لا تذكرنى بهذا الموضوع مهما مرّ على لقائنا اليوم من زمن ... هل يضايقك هذا ؟

- لا يضايقني أبداً .

قال ناجي ذلك كارهاً نفسه أشد الكره . لقد رأى الرجل يجاهد الدموع حتى لا تندفع من عينيه .

* * *

المســـاء

ليس لغرق المرأة ظهرت السحب الرمادية عند الأفق وقت الغروب ، لكنها العريش وشاطئها الطويل المنسرح كامرأة رائعة القوام . هذا الشاطئ المفتوح على البحر الأبيض المتوسط تتدافع إليه أحياناً سحب تبدو شتوية ، لذلك فالعريش رغم أنها على الساحل الشمالي للبلاد ، مثل الاسكندرية ومرسى مطروح ، إلا أنها دائماً أقل حرارة من المدينتين .

بدا الجو خريفياً يبعث على الحزن ، كما لو كان في الاسكندرية في سبتمبر حيث تبدأ السحب الرمادية في الركض فوق البحر ، وتصل قوافل السمان متعبة إلى الشواطئ ، لقد نسى الجميع موعد الغداء فإذا بزيد والأطفال يأتون يسألون عنه . لم تكن هناك شهية للطعام عند الكبار رغم الجوع . أدخلت نور الصباح الأولاد إلى إحدى الغرف يأكلون . اكتشف ناجي أنه لم يخلع حذاءه حتى الآن فخلعه ، ثم وهو يُدخل الحذاء إلى إحدى الغرف اكتشف أنه لم يخلع ثيابه فخلعها ، وارتدى الشورت ، وعاد إلى الفراندة يستقبل الهواء بجسده .

سمير لم يصل بعد . ربما ضل طريقه كما قال جواد مازحاً ، سيعود سمير بعد سنوات ليدق أبواب العريش ، ويحكي قصته الرهيبة عن الصحراء ، والكهف الذي ظل قابعاً فيه ، وكلما خرج وراه أحد يسأله

إلى المدينة رفض وطلب أن تأتيه الأوامر من مسئول الرحلة ، أو ناجي ، وتكون واضحة محددة ، تعلن له أن الحرب انتهت . هذا يحدث كثيراً هذه الأيام إذ يجدون جنوداً يابانيين شاخوا في الغابات ولم يسلموا سلاحهم ولا عادوا إلى وحداتهم منذ الحرب العالمية الثانية ، لأنه ببساطة لم تصل إليهم أوامر من قادتهم بانتهاء الحرب .

* * *

رفــح

كان لديهم عدد قليل من دبابات « ستاليــن – ٣ » ودبابــات « ت ٣٤ » وضعوها داخل حفر عميقة . وكانت كتيبته ضمن أحد ألوية فرقة المشاة السابعة التي تمتد في السهل للدفاع عن المنطقة ما بين رفح وخط السكة الحديد القديم الذي لم يعد منه الآن إلا البقايا القديمة الصدئة التي ظهرت في طريق قدومهم إلى العريش على مسافات مترامية . كان لديهم أيضاً عدد قليل من المدافع المضادة للطائرات ، وقذائف البازوكا ، وكان الليل صافياً ، صحراوياً ، يهمس بالسكون .

في الصباح استمعوا إلى صوت المدافع والقنابل بالقرب منهم في خان يونس ، ورأوا الطائرات وهي عائدة من الأجواء المصرية . لم يكن يعرف ، لا هو ولا أحد بعد ، أن هذه الطائرات دمرت المطارات والطائرات الرابضة بها ، وأن الحرب انتهت ولم تبدأ بعد .

انثنت الطائرات عليهم ، تقصف بشدة مواقعهم ، مواقع الدبابات والمشاة والمدفعية . اندفعت نحوهم دبابات اللواء المدرع السابع الإسرائيلي الذي يقوده جونين ، وأخذت الطريق الرئيسي رفح – العريش – القنطرة ، وتجاوزتهم . وحينما دخلت الدبابات بلدة رفح ،

واتخذ جونين من معسكر رفح مقر قيادته ، كانوا هم لا يزالون يقاتلون ما يتقدم إليهم من خان يونس من دبابات . استطاعت الدبابات « ت – ٣٤ » القليلة الباقية ، أن تصيب الكثير من دبابات « السنتوريون » قوية الدروع وذات المدافع المتفوقة ، بل وأصابت أيضاً عدداً من دبابات « الباتون » .

عادت الطائرات « الفوجامستير » الإسرائيلية لضرب المدفعية المصرية والدبابات القليلة الباقية . رجال المدفعية الشجعان ، رآهم ناجي ، وهم يبتعدون عن مدافعهم حين تأتي الطائرات ، ثم يعودون إلى ما تبقى منها بعد اختفاء الطائرات ، ويواصلون اطلاق النار على مشاة العدو ودبابات الباتون والسنتوريون . هل قال أحد إنه حتى مساء اليوم التالي ، وكانت العريش قد سقطت ، ظلوا هم يقاومون في منطقة رفح ؟ إنهم حتى لم يستسلموا جميعهم ، استشهد أكثرهم ، والقليل الباقي ظل يصرخ مجروحاً في الخلاء ، وأقل منهم من استطاع العودة عن طريق البدو إلى قناة السويس بسلام . هذه الصحراء التي رآها في الصباح ، والتي رآها يوم حضورهم ، لم تكن هي أبداً التي هرب به البدو بين مسالكها الخفية ، رغم أنه ربما يكون قد مشى على نفس الرمال في الظلام .

* * *

الطـــريق

يمشي سمير كثيراً في الصحراء حتى يتعب فيقابله أسد ونمر وحمار وحشي وغزالة وكوبرا ، فيدخل أول مغارة تقابله ليجد بحيرة من الزئبق . تكون الغزالة قد دخلت خلفه والحمار الوحشي والنمر والأسد والكوبرا ، فيلتهم الأسد الغزالة ، ويلتهم النمر الحمار الوحشي ، وتقف

الكوبرا رافعة رأسها ، ويقفز هو ، سمير ، إلى زورق مركون على شاطئ البحيرة ، يجدف بمجدافيه ليصل إلى المنتصف ، وينظر إلى الأسد والنمر والكوبرا التي تنظر إليه . يتمنى ناجي أن يعود سمير بسرعة فلا يفقد الكاميرا ولا الأفلام .

* * *

الفتاة الفلسطينية

يرى ناجي الناس تعود إلى لهوها على الشاطئ . لا يزال في الدنيا بعض ضوء أبيض . تظهر ألعاب الكرة والمضرب . ويرى الفتاة تمشي وحيدة على الشاطئ . لكنها تنظر ناحية الشاليهات . تشير إليه رافعة ذراعها وتبتسم ، لكنه يتردد في رد التحية . لسبب لا يعرفه يتردد . ربما لأنها فاجأته . وربما لأنه يجلس في الشرفة وحيداً ليس معه أطفاله ، وهي ما اعتادت أن تنظر إلا إلى أطفاله .

* * *

المســـاء

ابتعد قرص الشمس عن الدنيا ، ومال نحو الأفق الأحمر متسعاً ، يخلف وراءه إحمراراً طاغياً يستبد بالفضاء ، فيميل اللون الأزرق للماء إلى الخُضرة القاتمة . لا بد أيضاً أنه صار ثقيلاً الماء الآن كما يحدث كل مساء ، ولا بد أنه ارتفع بتأثير المد .

يرى ناجي العدد القليل من الذين لا يزالون في الماء يسبحون في حزمة من الأشعة الحمراء ، وقرص الشمس يبتعد ويتسع أكثر ، ويزداد

الاحمرار فوق الدنيا ولا تشتعل . هذا المشهد الجميل الذى يراه كل يوم ، والذى سيظل حتى يوم الدينونة ، هو المساء فى بلاد الشرق . النخيل سابح فى الأحمر يلمع بلحه فى أعذاقه الصفراء ، ولم يبق إلا طالعو النخل يتسلقون النخيل . يراهم ناجى يصعدون الجذوع بخفة ومهارة كفصيل من القرود ، ثم يخيل إليه أنهم أطفال عراة بيض الوجوه سود العيون أبرياء ، سعداء يلقون بالبلح فوق الأرض ويضحكون . لكن هذا النخيل الجميل لايزال يُصَعِّد الأسى فى روحه .

* * *

يحيـــــى

وقفت سيارة جيب عسكرية أمام الفندق يا أستاذ ، كان الحر قد طرد الهواء من البلاد ، وكانت الحرب قد طردت الناس . تقدمت إلى الجندى الذى يقود العربة بزجاجتين من الماء الفرات . سألنى ماذا أريد . قلت خبزاً . سألنى هل أنا وحدى فى الفندق ، قلت نعم وقد سافر صاحب المال إلى الموصل . سألنى اسمى قلت يحيى ، فقال « وأنا اسمى سبتى » وأعطانى الخبز وأخذ الماء . راح يمر علىّ كل يوم وقت الظهيرة يعطينى الخبز ويأخذ الماء . كانت لدى زجاجات ماء كثيرة ، مئات ، ومئات من زجاجات البيرة أيضاً ، والفندق لا يأتى إليه أحد . البصرة مدينة أشباح وليس معى غير هذه القطة وهذا الكلب . كنت وجدت القطة تموء فى الشارع الخالى وسط غارة عنيفة ، فخرجت إليها وحملتها إلى الفندق . أما الكلب فأمره عجب ، كنت نائماً بالليل خلف طاولة الاستقبال ، سمعت ما يشبه الخربشة على زجاج الباب المغلق ، قمت فى العتمة متحفزاً ، لم يكن مسموحاً بإشعال أى ضوء فى الظلام ، غامرت وأشعلت عود ثقاب ، كان هناك رصاص كثير ينطلق فى سماء المدينة من الرشاشات والمدافع

المضادة للطائرات ، ولم تكن هناك طائرات .. عملية عسكرية يسمونها تنشيط السماء تحسباً لأى هجوم جوى . رأيت خلف الزجاج هذا الكلب يقف فوق الساتر الرملى على قدميه الخلفيتين ، ويضرب الزجاج بقدميه الأماميتين . هكذا بالضبط . رآنى فكف عن ذلك ، ونظر إلىّ يريد الكلام . فتحت له الباب فاندفع إلى الردهة ، ثم نبح مرتين ، واقترب منى ، يمسح رأسه وجسده فى ساقى . بسرعة تآلف مع القطة ، ثم تآلفنا جميعاً بعد أن انضم سبتى إلينا .

كان يمضى معى وقتاً طويلا ، وصار يمضى اجازته فى الفندق بعد أن ماتت كل عائلته . سألنى لماذا أبقى فى البصرة فى ظروف الحرب ؟ ووجدت نفسى أقول وأين يمكن أن أذهب ؟ .. الحقيقة لم أكن أكذب ، ولا أعرف كيف كان ذلك صادقاً أيضاً . إنه احساس قد تجده عند الكثير من المصريين هنا ، رغم أن ظروف المعيشة صعبة ، ولا شىء يشجع على البقاء ، فالعراق ليست السعودية ولا الكويت يا أستاذ ..

كان سبتى كثيراً ما يتعجب من بقائى هذا ، ويضحك فى النهاية ، وكنا نشرب البيرة معاً رغم أن ذلك محظور على الجنود . ولا أنسى يوم شرب سبتى صندوقاً كاملاً ، ثم اندفع فى بكاء طويل عميق انهمرت فيه دموعه كنهرين . لقد ظل يبكى لأكثر من ساعة ، حتى ظننت أن البيرة التى شربها كلها تحولت إلى دموع . بعد ذلك دخل فى صمت تام ؛ وانشغل عنى بالبقاء فى إحدى الغرف . ثم أعلننى أنه كان يكتب مذكراته عن الحرب ، وطلب منى أن أعطيها لأحد من وفود الكتاب والصحفيين التى ستفد على البصرة بعد الحرب ، ولم أعد أراه بعد ذلك اليوم .

* * *

المســــاء

يقف ناجى بعد أن أحس فجأة أن هدوءاً غريباً شمل المكان فلم يعد يسمع حتى صوت الأطفال داخل الشاليه ، ولا صوت نور الصباح أو شادية . رأى الشمس قد ابتعدت فى الماء ، وأخذت وهى تسقط فيه أشعتها الحمراء معها ، وتركت القادم الأسود يزحف من فوق الماء وتحت السماء . إنه ، ناجى ، يميز الخط الفاصل بين السمرة القادمة ، والحمرة الذاهبة ، ويرى مجموعة السحب الرمادية المنخفضة البعيدة تقترب من الأفق ، وتتخللها آخر الأشعة الحمراء التى تظهر من خلفها ، فتبدو السحب كستار رقيق من دخان عند طرفها الشمالى ، بينما يتشرب وسطها وطرفها القريب بالحمرة . لكن كل ذلك يعتم الآن شيئاً فشيئاً . يخيل إليه أنه لمح شبح الفتاة الفلسطينية عائدة ، لكنه لا يرى إلا خيالات عدد من الخارجين من الماء يتقدمون ناحية الشاليهات . يستغرق الليل كل شىء فلا يرى إلا نهايات الأمواج ذات الزبد ، ويسمع وشيشها يزداد . يجد نفسه يمشى إلى الماء . يقترب منه . الماء الغاشم الجميل لم يعد فيه غير رجل بدا له غريب الأطوار حقاً إذ يضع ابنته الصغيرة فوق عوامة ، والطفلة تضحك غير خائفة ، والرجل يضحك سعيداً بينما يسبح بها فى دائرة واسعة . يخيل لناجى أن البحر سوف يرتفع إليه ، ويلتف حوله فى قوس كبير ، ثم يضيق ليدور به الماء مدوماً ، ويمضى إلى غير نهاية . لكن البرد اللطيف الذى يتدحرج فى الظلام يحمله إلى شوارع موسكو بعد أن يشرب كأساً من الكونياك الأرمنى . لقد دق جرس التليفون فى الليلة الأخيرة فى نفس الساعة السابعة حيث ينتظرها . رفع السماعة فلم يأته صوت . وضع السماعة فسمع دقات التليفون مرة أخرى . رفع السماعة ولا من مجيب .. أولا . أولجا . كليوباترا . ولا رد يأتى إليه . هل كانت تريد أن تستوثق من انتظاره لها ؟ أم تريده أن يستوثق من عدم حضورها

إليه ؟ .. كل شىء يتغير حوله ، وما كان عليه أن يقامر بفرض نفسه على النساء . هل سيخسر كثيراً فى المستقبل ؟ ولماذا حقاً يزداد البرد الليلة ؟ .. يرى شبحاً يقترب منه مسرعاً وحافياً . يجده صياداً يمضى بسرعة حاملاً سلة من البوص وشبكة على ذراعه . يتبعه بعينيه قليلاً حتى يختفى الرجل فى الظلام .

* * *

القنــــاديل

لم يكن يدرى أن الموج الذى يرتفع بفعل المد ، يقترب منه وهو يجلس وحيداً الآن على الشاطئ . لامست موجة أطراف أصابعه وأحس بالماء الدافئ . لم يتراجع من مكانه . مد ساقيه إلى الأمام أكثر . عادت موجة لكنها كانت أضعف من سابقاتها فلم تلامس أصابعه . راح يتابع الموج . واحدة تلمسه وأخرى تعجز عن الوصول إليه . هذا العمل المجنون للبحر يبدو بلا طائل . ثم لامس قدميه شىء ناعم ورخو ولزج . نهض واقفاً وتراجع فى فزع . نظر ليجد فوق الرمال قنديلاً يلمع وسط الظلام ، ثم رأى قريباً منه قنديلاً آخر ، وثالثاً ورابعاً . أعداد كبيرة من القناديل حملتها الأمواج ذرأة إلى الشاطئ بلا حركة . التفت ليعود إلى الشاليه على مهل . للحظة فكر أن كل الزمن الذى عاشه كان مكرساً لأبعد الحقائق ، ولا بد أن شخصاً آخر هو الذى عاش ما مضى من زمن ، ولا معنى لنشر مذكرات الجندى المسكين صديق يحيى . لقد حلم الجندى بيوم تنتهى فيه الحرب وتمحى من الذاكرة ، لكنه اختصر الطريق بالموت ، إلى النهاية والنسيان . وناجى لم يعد يذكر – حقيقة – فى أى مكان احتفظ بتلك المذكرات . كأنه كان يعرف أن حرباً أخرى ستنصب ، وجحيماً آخر سيقام ، وحتى ينسى الناس الحرب الجديدة

ستنصب لهم حرب أخرى وسيقام لهم جحيم آخر ، فى الشرق أو فى الغرب . لكنه ، ناجى ، ينتفض ويقرر أن ينفجر بالكلام . يحكى لأولاده الحكاية التى أغفلها طويلاً ، والتى كان يحكيها يوماً للناس بسعادة بالغة .

* * *

الفـــردان

تلاقت العيون صامتة ، وهو يرى زملاءه من صيادى الدبابات فى عدتهم الكاملة ، يخرجون من خنادقهم ، ويتبعون ضباطهم بلا كلام . لقد عبروا القناة ومعهم مجموعات من سلاح المهندسين ، لفتح ثغرات فى حقول الألغام على الضفة الشرقية . هذا ما عرفه فيما بعد ، بعد اختفائهم بساعات ، حين احتشد جسده بالدمع وهو يرى طائرات « السوخوى » و « هوكرهنتر » تمرق من فوقهم على ارتفاع منخفض ، مندفعة إلى عمق سيناء . لم يتسع الوقت للسؤال . ما كادت الدهشة تتمدد ، حتى اهتز الفضاء بالرمى المدفعى الكثيف على طول الجبهة ودخلت الأرض فى مخاض ..

عبرتْ وحدات من الصاعقة المترجلة القناة على الزوارق المطاطية مع الدقائق الأولى للرمى المدفعى ، لتتسلل نحو محاور الحركة فى العمق ، لتعترض تدفق المدرعات الإسرائيلية . وحدات المشاة الرئيسية عبرت القناة على قوارب المطاط بأعداد هائلة . لم تظهر الطائرات الإسرائيلية لأربعين دقيقة . حين ظهرت طائرات الفانتوم وسكاى هوك طارت إليهمـــا صواريخ « سام ٢ » و « سام ٣ » و « سام ٦ » وصواريخ الكتف « سام ٧ » ومئات المدافع المضادة . تساقطت الطائرات بسرعة . ارتفعت صيحات التكبير والتهليل ولم تنقطع . عند

الساعة الخامسة انقطع الطيران الإسرائيلى عن الظهور . كان ناجى قد أصبح مع الآلاف غيره على الضفة الشرقية لا ينظر خلفه قط . لم يشارك فى حصار المواقع الإسرائيلية التى تتساقط بسرعة . وتأتيهم عبر أسلاك الإشارة أخبار فتح الثغرات ومد الجسور على القناة . لقد ارتفعت الأعلام المصرية على أكثر من مكان فوق خط بارليف المهيب . توالت عليهم قذائف المدفعية الإسرائيلية لكن لم يبد أن القصف مرتب أو مؤثر .

دخل الليل ومعه أتى صوت هدير المدرعات التى ينتظرونها منذ العبور . لقد مدت الجسور فى أكثر من مكان بنجاح . لا بد أن اليوم السابع من أكتوبر سيكون يوماً جديداً . انهمك الجنود طول الليل فى حفر الحفر البرميلية ، وتعبئة الأكياس بالرمال يحيطون بها خنادقهم . لم تكف الدبابات الإسرائيلية عن محاولة الاقتراب طول الليل ، ولم تكف دباباتهم عن إطلاق النيران عليها ومعها المدافع من الضفة الغربية . انفجارات الدبابات الإسرائيلية بعيداً حول الليل إلى أفق . كل دبابة تشتعل فى الأفق كانت مثل فجر ينفجر . تشمله رعشة وخشوع . إنه يسمع صوت المقدم إبراهيم زيدان وهو يشرح لهم فى الظلام . سيتوزعون فى حفر ثعالب على بعد كيلومترين من القناة . ستعبر فوقهم الدبابات الإسرائيلية ولا يهاجمونها . ينتظرون حتى يعبر اللواء الإسرائيلى كله ثم يقفون فى الحُفر ، فى الخلف وعلى الجانبين ويطلقون جميعاً وفى وقت واحد صواريخهم « الساجر » وقذائف « الآر بى جى » سيتحول الكمين إلى أرض قتل .

على قدر ثقتهم فى النصر كان اعتصامهم بالصمت . وكان الصمت عميقاً . فى التاسعة والنصف صباح اليوم التالى تقدمت سرية استطلاع إسرائيلية . تصدت للسرية كتيبة العقيد قطين دياب . إنه لا ينسى . ظلوا هم فى حفرهم معتصمين بالصمت مع قائدهم . ليس هذا هو الصيد المنتظر . فى حوالى العاشرة كان اللواء الإسرائيلى « ١٩٠ مدرع »

الذى سيكون تدميره حديث الدنيا ، يتقدم من « هيئات » على بعد خمسة عشر كيلومتراً من مواقعهم بسرعة كبيرة . لم يسبقه أى رمى تمهيدى ، ولم يؤازره ، طيران إلا من بعيد خوفاً من الصواريخ صائدة الطائرات . عبرهم اللواء فى طريقه إلى القناة ولم يصل . فى وقت واحد انتصبوا كالجنون وصوبوا قذائفهم الرهيبة . فى ثلاث دقائق تم تدمير اللواء . بعد ذلك بوقت قليل عثر الملازم فتحى بخيت وجنوده من رجال الاستطلاع ، على قائد اللواء عساف ياجورى وطاقم قيادته وهم يحتمون بإحدى الحفر القريبة من أرض المعركة . لقد اشتعلت دبابة القائد وطاقم قيادته فيما احترق من دبابات . قالت إسرائيل إن عساف ياجورى ليس قائد اللواء ، إنما هو قائد كتيبة منه . لم يهم ذلك أحداً . لقد تم تدمير اللواء جميعه ، وصار الفلاحون المصريون صيادى دبابـــات . قال ذلك الإسرائيليون أنفسهم ، وكان هو واحد من الفلاحين الذين جعلوا إسرائيل تسمى ذلك اليوم بأطول يوم .

حدث ذلك كله أمام جسر الفردان – المكان الذى عبروا فوقه يوم الجمعة الماضية قادمين إلى العريش ، والذى سيعبرون فوقه عند عودتهم . لن يتأخر فى الرد على زوجته وأطفاله حين يسألونه من جديد عند العودة . لن يخجل . وهل يخجل حقيقة أم لا يجد معنى للقصة كلها بعدما مر من سنوات ؟ ليس على المحارب الذى شعر يوماً بالرضا والفخر أن يقوم أى ذكرى طيبة .

* * *

يصل إلى الشاليه منتعشاً ينادى نور الصباح .. يتساءل وهو واقف بالفراندة لم يجلس بعد ..

– هل حزمت الحقائب استعداداً للسفر ؟

هى تعرف أنه لا يستطيع أن يمسك بسهولة بالتواريخ وأسماء الأيام . لم تعرف أن سبب الخطأ هذه المرة رغبته المفاجأة ، الطفولية ، أن يعود إلى منطقة الفردان ، لتعود هى إلى سؤاله عن صيد الدبابات ، فيحكى لها القصة كاملة ، ويسمعه الأطفال . لذلك ابتسمت وهى تقول :

– لا يزال أمامنا يوم آخر . ستنتهى الرحلة بعد غد .

لم يعلق . جلس على الفوتيل الموضوع بالفراندة صامتاً بينما امتدت يدها تشعل التليفزيون قبل أن تجلس .

رأى أمامه حشداً من الإسرائيليين يجلسون على شاطئ البحر فى حفل سمر ، أمامهم أحد اليهود الفلاشا الواصلين حديثاً إلى إسرائيل ، عارياً إلا من الريش الطويل يغطى نصفه الأسفل ولا يصل إلى ركبتيه . بين الإسرائيليين نساء وأطفال ، وكانوا جميعهم بيض الوجوه ، باستثناء اليهودى الفلاشا وزميله الذى يقف قريباً منه يدق له على الطبلة بإيقاع سريع بينما يدور الأول حول طاولة ممددة على الأرض ، مليئة بالمسامير المثبتة بحيث تكون مقلوبة . مذيع الحفل يقف فى يده « المايك » يقول كلاماً سريعاً وبانفعال شديد حتى هدأت دقات الطبل ، وهدأ صوت المذيع ، فانطرح اليهودى الأسود العارى إلا من الريش على طاولة المسامير . وصفق المذيع بشدة بعد أن وضع المايك تحت إبطه ، لكن لا أحد من اليهود البيض ، رجلاً أو امرأة أو طفلاً ، تابعه فى التصفيق ، ولا لمح ناجى واحداً منهم يضحك أو يبتسم . بدا له اليهودى الفلاشا مسكيناً بحق ، وأظهرت الكاميرا عدداً كبيراً من اليهود البيض مشتبكين فى الحديث .

التفت ناجى إلى البحر الذى ارتفع فيه صوت الموج . جذبت عينيه الأضواء القوية القادمة من فوق الماء وسط الظلام العميق . زوارق كثيرة حقاً هذه الليلة تجوب الماء . لكنه لا يزال يصدق أنها زوارق حقيقية تبحث عن عصابات المهربين . إنهم أولياء الله يمشون على الماء رافعين بيارقهم الضاوية ولا شىء آخر .. لا شىء آخر ..

انتهــــت

أغسطس ١٩٩١

مايـــو ١٩٩٢

للمـؤلف :

أولا : الروايـــــات :

١ – « فى الصيف السابع والستين » :

الطبعة الأولـى : دار الثقافة الجديدة – القاهرة ١٩٧٩

الطبعـة الثانيـة : الهيئة العامة للكتاب – القاهرة ١٩٨٩

٢ – « المســافـات » :

الطبعة الأولـى : دار المستقبل العربى – القاهرة ١٩٨٢

الطبعـة الثانيـة : إدارة الشئون الثقافية – بغداد ١٩٨٩

الطبعـة الثالثـة : الهيئة العامة للكتاب – القاهرة ١٩٩٠

٣ – « ليلة العشق والدم » :

الطبعة الأولـى : مطبوعات القاهرة – القاهرة ١٩٨٢

٤ – « الصياد واليمام » :

الطبعة الأولـى : دار المستقبل العربى – القاهرة ١٩٨٥

الطبعـة الثانيـة : إدارة الشئون الثقافية – بغداد ١٩٨٦

الطبعـة الثالثـة : الهيئة العامة للكتاب – القاهرة ١٩٩٠

٥ – « بيت اليـاسـمين » :

الطبعة الأولـى : دار الفكر للدراسات ١٩٨٧

٦ – « ~~[illegible]~~ » : البلدة الأخرى

الطبعة الأولـى : دار الريس للنشر – بيروت ١٩٩١

٧ – « مذكرات عبد أمريكي » :

الطبعة الأولى : مؤسسة الدراسات العربية ١٩٨٧

ثانياً : القصة القصيرة :

١ – « مشاهد صغيرة حول سور كبير » :
وزارة الثقافة – سوريا ١٩٨٢

٢ – « الشجرة والعصافير » :
مختارات فصول – القاهرة ١٩٨٦

٣ – « إغلاق النوافذ » :
مختارات فصول – القاهرة ١٩٩٢

■ دار سعاد الصباح

للنشر والتوزيع

هي مؤسسة ثقافية عربية مسجلة بدولة الكويت وجمهورية مصر العربية وتهدف إلى نشر ما هو جدير بالنشر من روائع التراث العربي والثقافة العربية المعاصرة والتجارب الابداعية للشباب العربي من المحيط إلى الخليج وكذا ترجمة ونشر روائع الثقافات الأخرى حتى تكون في متناول أبناء الأمة فهذه الدار هي حلقة وصل بين التراث والمعاصرة وبين كبار المبدعين وشبابهم وهي نافذة للعرب على العالم ونافذة للعالم على الأمة العربية وتلتزم الدار فيما تنشره بمعايير تضعها هيئة مستقلة من كبار المفكرين العرب في مجالات الإبداع المختلفة.



منتديات مكتبة العرب

http://library4arab.com/vb

منتديات مكتبة العرب

http://library4arab.com/vb

قناديل البحر

في هذه الرواية القصيرة ينتقل إبراهيم عبد المجيد إلى أرض جديدة ومكان جديد . صحراء سيناء هذه المرة ، وبالتحديد الساحل الشمالي من العريش إلى رفح ، بعد أن كتب عن الاسكندرية المجهولة روايات « الصياد واليمام » و « بيت الياسمين » و « ليلة العشق والدم » و « المسافات » ، وبعد أن كتب عن الصحراء العربية « البلدة الأخرى » .

العصافير الصغيرة الملونة وهي تغادر القلب هو الإحساس الذي لازم إبراهيم عبد المجيد وهو يكتب هذه الرواية القصيرة . هكذا يقول في تقديمه لها . والرواية محاولة كمحاولات المؤلف الدائمة للإمساك بالأحلام .

في هذه الرواية تتفجر سيناء بالذكريات ، والتي تحمل البطل إلى الشمال حتى موسكو وكييف وتعود به إلى بلاده العربية ، الموصل والبصرة والعريش ورفح ، وتتفجر اللغة بالشعر كما هي العادة عند إبراهيم عبد المجيد ، وتصل بالأسئلة إلى القلب . أسئلة الرواية عن قصص الحب المقطوعة ، والحروب التي بلا معنى ، والقناديل التي يضربها الموج ..

